قسم اللغة الفارسية وآدابها

تاريخ إيران في عصر السلاجقة والخوارزميين

مع نصوص فارسية

الفرقة الثانية فارسي

أستاذ المقرر

د. صديق محمود حسن زارع

قسم اللغة الفارسية وآدابها- كلية الآداب بقنا

العام الجامعي ٢٠٢٢/٢٠٢٣م

بيــانــات أساسية

الكلية: الآداب

الفرقة: الثانية فارسي

التخصص: اللغة الفارسية

عدد الصفحات: ١٦٠ صفحة

القسم التابع له المقرر: قسم اللغة الفارسية وآدابها .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٧-٨
القسم الأول: تاريخ إيران في عصر السلاجقة والخوارزميين	٩- ١٤٤
الفصل الأول: الدولة السلجوقية	١١- ٦٣
أولًا: التاريخ السياسي للدولة السلجوقية	١٣- ٤٨
ثانيًا: مظاهر الحضارة في الدولة السلجوقية	٤٩- ٦٣
الفصل الثاني: الإسماعيلية والقراخانيون	٦٥- ٧٩
أولًا: الإسماعيلية	٦٧- ٧٤
ثانيًا: القراخانيون	٧٥- ٧٩
الفصل الثالث: الدولة الخوارزمية	٨١- ١٤٤
أولًا: الحالة السياسية في الدولة الخوارزمية	٨٣- ١٣٨
ثانيًا: مظاهر الحضارة في العصر الخوارزمي	١٣٩- ١٤٤
القسم الثاني: النصوص الفارسية	١٤٥-١٥٧
قائمة المصادر والمراجع	١٥٨- ١٦٠

مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي الحبيب العالي القدر العظيم الجاه وعلى آله وصحبه وسلم.

يسعدني أن أقدم لدارسي اللغة الفارسية وآدابها، والمهتمين بها هذا العمل المتواضع المبسط، والذي حاولت فيه تقديم تاريخ إيران في عصر السلاجقة والخوارزميين بشكل مختصر، وبأسلوب سهل سلس بعيد عن الغموض والإبهام، وقد سبقني فى هذا المضمار نخبة كبيرة من أساتذتنا الإجلاء كان لهم دورهم البارز، وإسهاماتهم القيمة في هذا السبيل، فأناروا لنا الطريق، وعلى هداهم نسير .

مقدمة

القسم الأول: تاريخ إيران في عصر السلاجقة والخوارزميين

الفصل الأول: الدولة السلجوقية

أولًا: التاريخ السياسي للدولة السلجوقية

ثانيًا: مظاهر الحضارة في الدولة السلجوقية

الفصل الثاني: الإسماعيلية والقراخانيون

أولًا: الإسماعيلية ثانيًا: القراخانيون

الفصل الثالث: الدولة الخوارزمية

أولًا: الحالة السياسية في الدولة الخوارزمية

ثانيًا: مظاهر الحضارة في العصر الخوارزمي

القسم الثاني: النصوص الفارسية

وأرجو من الله العزيز القدير أن أكون قد وفقت فيما قمت به من عمل،

وعلى الله قصد السبيل وهو الموفق والمعين .

القسم الأول

تاريخ إيران في عصر السلاجقة والخوارزميين

الفصل الأول

الدولة السلجوقية

أولاً

التاريخ السياسي للدولة السلجوقية

الدولة السلجوقية

لعبت دولة السلاجقة العظمى دورًا تاريخيًا حاسمًا في القرنين الخامس والسادس الهجريين، فقد نجحت تلك الدولة الإسلامية في حفظ سلطان الدولة العباسية السنية أمام منازعة الدولة الفاطمية الشيعية لها في مصر والشام، وخلصتها من سطوة البويهيين الشيعة الذين جثموا على صدور العباسيين، وسيطروا عليهم مستغلين حالة ضعفهم، كما ساهمت في توجيه الأحداث السياسية في المشرق الإسلامي بشكل بارز، وفي رسم سياسة توسعية باتجاه العالم المسيحي؛ لنشر العقيدة الإسلامية، وشكلت حصنًا منيعًا أمام الغزوات الصليبية الغربية، ولقنت دروسًا عظيمة للجيوش البيزنطية ومرتزقتها، واستمرت كذلك لعقود إلى انهيارها، ويكفي دلالة على دورها المصيري، النظر إلى تاريخ أول حملة صليبية على بلاد المسلمين في الشرق، حيث انطلقت في عام ٤٩١هـ بأوامر من البابا "أوربان الثاني" في كليرمونت جنوب فرنسا لانتزاع القدس وعموم الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين وذلك بعد نحو ٦ سنوات من وفاة سلطان السلاجقة ملكشاه بن ألب أرسلان في عام ٤٨٥هـ، أي بعد أن دخلت الدولة السلجوقية في مرحلة الانهيار والتنازع والانقسام مباشرة بعد وفاته. كما لا ننسى إنجازات الدولة السلجوقية الفكرية وتقدمها في كثير من علوم الحضارة، وازدهار الحركة العلمية في عصرها حيث نشط العلماء في دحض شبهات الفرق الشاذة والمنحرفة والمبتدعة كالرافضة والإسماعيلية بالتوازي مع الجهود العسكرية في القضاء عليهم، مما ساهم في تقوية صف أهل السنة . كما لمعت خلال

حكمهم نجوم أسماء العديد من العلماء منهم أبو إسحاق الشيرازي وأبو حامد الغزالي وعبد الملك الجويني وغيرهم .

بلغ أكبر امتداد لدولة السلاجقة العظام في عصرها الذهبي في عصر السلطان ملكشاه، حيث حكم السلاجقة من حدود الصين شرقًا إلى البحر المتوسط غربًا، وضمت أقاليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغرى والعراق والشام، وخضع لها قياصرة الروم، فدفعوا الجزية المفروضة عليهم بشكل سنوي دون إخلاف أو تسويف، لكن كثرة التنازع على الملك بعد وفاة ملكشاه تسببت في تقلص رقعة الدولة السلجوقية وانقسامها.

انقسم السلاجقة إلى عدة فروع رئيسة، وهي:

أ- السلاجقة العظام: وهم طغرل بك، وألب أرسلان، وملكشاه، حيث استقرت وازدهرت الدولة في عصورهم، وأضاف لهم بعض المؤرخين أبناء ملكشاه بركياروق ومحمد وسنجر، رغم كثرة التنازع في عصرهم، وتسلل الضعف لأركان الدولة، وحكموا منذ عام ٤٢٩هـ/١٠٣٨م إلى عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م.

ب- سلاجقة العراق: وهم أمراء السلاجقة الذين سيطروا على العراق والري وهمدان وكردستان، واستمر نفوذهم من عام ٥١١هـ/١١١٧م إلى عام ٥٩٠هـ /١١٩٤م، وانتهى عصرهم بتمكن الخوارزميين من القضاء عليهم .

جـ- سلاجقة كرمان: تركز نفوذهم في الجنوب الشرقي لفارس، وفي بعض مناطق الوسط سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م، واستمر حتى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م، وانتهى عصرهم بقضاء التركمان عليهم .

د- سلاجقة الشام: تمركز نفوذهم في المناطق التي استولى عليها السلاجقة من الفاطميين أو الروم في الجزيرة والشام، وانتهى نفوذهم سنة٥١١هـ/ ١١١٧م على أيدي أتابكة الشام والجزيرة .

هـ- سلاجقة الروم: تمركز نفوذهم في أراضي الروم التي فتحها السلاجقة في آسيا الصغرى، واستمر نفوذهم حتى سنة ٧٠٠هـ/١٣٠١م، وانتهى عصرهم بصعود العثمانيين الذين قضوا عليهم .

أصل السلاجقة :

الدولة السلجوقيَّة أو دولة بني سلجوق أو دولة السَّلاجقة العظام- يُطلَق عليها الاسم الأخير لتمييزها عن دول السَّلاجقة اللاَّحقة التي ظهرت بعد تفكِّكها وانهيارها-، هي واحدة من الدول الكبرى في تاريخ الإسلام، وإقليم وسط آسيا، وقد لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الدولة العباسية، والحروب الصليبية والصراع الإسلامي البيزنطي، وتأسَّست على يد سلالة السَّلاجقة .

ينحدر السلاجقة من قبيلة "قِنِق" التركمانية التي تنتمي بدورها إلى مجموعة أتراك الأوغوز، وتشكل مع ثلاث وعشرين قبيلة أخرى من القبائل التركمانية ما يعرف بقبائل "الغز"، وكانت مواطنهم الأولى في منطقة ما وراء النهر (تركستان اليوم)، وهي مساحة ممتدة من هضبة منغوليا وشمال الصين شرقًا إلى بحر الخزر(بحر قزوين) غربًا، ومن سهول سيبيريا شمالًا إلى شبه القارة الهندية وفارس جنوبًا .

تحركت تلك القبائل في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي باتجاه آسيا الصغرى في أسراب ضخمة مهاجرة، واختلفت الروايات التاريخية

في تحديد سبب تلك الهجرة، فمنها من أرجعتها لأسباب اقتصادية بحثًا عن مصادر للعيش الكريم، ومنها من فسرتها بأسباب سياسية، بحثًا عن الاستقرار والأمن. واستمرت تلك القبائل المهاجرة في التوجه غربًا، ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحون، ثم استقرت لبعض الوقت في طبرستان، وجرجان، فأصبحت بمحاذاة الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند(٢١هـ-٦٤١م) التي أزالت الدولة الساسانية ببلاد فارس.

بدأت قصة ظهور السلاجقة من جدهم "دقاق" الذي كان وأفراد قبيلته في خدمة أحد ملوك الترك، والذي كان يعرف باسم "بيغو"، وكان دقاق في هذه المرحلة من تاريخ السلاجقة بمثابة شيخ ومقدم قبائل الأتراك الغز، مرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، ولا يتعدون له أمرًا، وانخرط "سلجوق بن دقاق" في خدمة (بيغو) كما كان والده من قبل، حيث كان يشغل وظيفة عسكرية مهمة - مقدم الجيش-، وفي هذا الوقت ظهرت عليه إمارات القيادة الفذة حتى أن زوجة الملك أخذت تثير مخاوف زوجها منه؛ لما رأت من حب الناس له، وانصياعهم إليه، وأوغرت صدره عليه لكي يقتله فلا ينافسه في يوم ما، خاصة مع ازدياد شعبية "سلجوق"، وإقبال الناس عليه، فبلغ مسامع الأخير الخبر، وهنا جمع كل من معه ورحل إلى دار الإسلام، وأقام بنواحي "جند" قريبًا من نهر سيحون، حيث اعتنق "سلجوق" الإسلام، وأعلن الجهاد ضد الكفار الترك. واستمر سلجوق كذلك إلى أن توفي في "جند"، فأكمل أولاده مسيرته من بعده في غزو الترك الوثنيين، وحماية ثغور المسلمين، وقد تمرسوا في فنون القتال والغزو، فازدادت قوتهم، وتوسعت أراضيهم، وكسبوا احترام الحكام المسلمين المجاورين لهم، فقد غزا "ميكائيل

بن سلجوق" بعض بلاد الكفار من الترك، فقاتل حتى استشهد في سبيل الله، ولا شك أنه في مقابل تلك الانجازات كان هناك التضحية والصبر والإصرار الذي غذّى الرغبة في إقامة دولة لهم، وهذا ما تحقق فعليًا في عام ٤٢٩هـ.

الصراع الغزنوي السلجوقي :

بعد سقوط الدولة السامانية، ارتفع ذكر الدولة الغزنوية، ولمع نجمها بشكل لافت في عصر السلطان محمود الغزنوي الذي تمكن من توسيع حدود دولته، فامتدت من شمال الهند في الشرق إلى العراق في الغرب، ومن خراسان وطخارستان وجزء من بلاد ما وراء النهر في الشمال إلى سجستان في الجنوب ، وكانت مدينة لاهور مقرًا لحكمه في الهند، حيث عين نائبًا له هناك. لكن قوة السلاجقة في بلاد ما وراء النهر بدأت تتعاظم في بداية القرن الخامس الهجري، مما آثار مخاوف السلطان محمود الغزنوي، وقرر في عام ٤١٥هـ كبح جماح السلاجقة، فعبر نهر جيحون لقتالهم، ونجح في القبض على زعيمهم "أرسلان"، وولده "قتلمش"، وعدد من كبار أصحابه، ثم بعث "أرسلان" إلى الهند، وسجنه هناك حيث مات في السجن بعد أن قضى فيه سبع سنوات. وفي عام ٤١٩هـ خرج السلطان محمود لقتال السلاجقة مرة أخرى بناء على التماس سكان مدينتي(نسا) و(باورد)، فأنزل بهم هزيمة ساحقة حفظت سلطان دولته من تهديد دولة ناشئة .

معركة دندانقان وقيام السلطنة السلجوقية :

لم يهدأ السلاجقة بعد الهزيمة التي نالت منهم على يد الغزنويين، فظلوا يتحينون الفرصة للثأر، ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد وفاة السلطان محمود،

وتولية ابنه مسعود مهام السلطنة في عام ٤٢١هـ، فأحرزوا انتصارات كبيرة على جيوشه، ومع ذلك عرضوا عليه الصلح، والدخول في طاعته، فقبل منهم، ومنح زعماءهم الإمارات والولايات، وكان سخيًا جوادًا معهم، ولكن في الوقت ذاته دفعته المخاوف من ازدياد قوتهم إلى تكليف عامله على خراسان سنة ٤٢٩هـ بقتالهم، فدارت الحرب بين الطرفين قرب مدينة سَرخس، وانتهت بانتصار السلاجقة، وتحول السلاجقة في نفس العام بقيادة زعيمهم طغرل بك نحو نيسابور، حيث بسط نفوذه عليها، وأعلن نفسه سلطانًا على السلاجقة، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي عام٤٢٩م، فاستثار هذا التصرف "مسعود" الذي زحف بجيوشه نحو خراسان، واشتبك مع السلاجقة في معركة حاسمة في مكان يعرف بـ "دَنَدانقان"، وكانت هذه المعركة إحدى المعارك الكبرى الفاصلة في التاريخ الإسلامي، ونقطة النهاية لدولة الغزنويين، حيث هزموا فيها هزيمة كبيرة عام٤٣٢هـ، وهزم مسعود نفسيًا وعسكريًا، فلم يقدم على أية مقاومة، وانسحب تمامًا إلى الهند، وقد قُتل مسعود في العام نفسه، فخلفه ابنه مودود. وقد أصبح السلاجقة بعد معركة دَنَدانقان أكبر قوة في خراسان، وضعف الغزنويون ضعفًا شديدًا بعد أن فقدوا غالبية جيوشهم، وخسروا العديد من ممتلكاتهم، وانتهى اسم الدولة الغزنوية بعد أن استولى الغوريون في أفغانستان على أملاكها في الهند عام٥٨٢هـ(١).

اقتسمت العشائر السلجوقية، الأراضي التي استولوا عليها، فكان نصيب "داوود چغري بك" مدينة مرو، فاستقر بها، واتَّخذ منها عاصمة لملكه، كما ملك أكثر خراسان، وكان نصيب "أبي علي الحسن بن موسى"، ولاية بُست

(١) انظر: علي محمد محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، ط١- القاهرة٢٠٠٦م، ص١٧- ٢٤

وهراة وسجستان وما يجاور ذلك من النواحي. وأخذ "قاورد"– أكبر أبناء چغري–، ولاية طبس ونواحي كرمان، وحصل "إبراهيم بن ينال" على همدان، كما حصل "ياقوتي" على أبهر، وزنجان، ونواحي آذربايجان، وكان من نصيب "قُتلمش بن إسرائيل" جرجان ودامغان. والواقع أن فكرة التقسيم هذه تتعارض مع الفكرة الإيرانية عن الملك بوصفه صاحب السلطة المطلقة في الدولة، وهي غريبة على السلاجقة الأوائل، إلا أن المسئولين السلاجقة هدفوا من وراء ذلك إلى إحاطة السلطنة الغزنوية، ومنعها من محاولة استعادة خراسان، ثم تأمين فتح طريق جيحون من أجل قدوم مهاجرين غز جدد .

١- طغرل الأول مؤسس الدولة السلجوقية وأول حكامها:

كان انتصار السلاجقة في معركة "سرخس" عام٤٢٩هـ/١٠٣٧م النقطة الفاصلة في تاريخهم، والبداية الفعلية لقيام دولتهم في خراسان؛ حيث اجتمعوا على زعامة "طغرل بك"، الذي أعلن نفسه سلطانًا على السلاجقة، وباشر مهامه السياسية والقيادية والإدارية لأول مرة في ذلك العام، وبعد انتصار السلاجقة في معركة دَنَدانقان ظفروا بمغانم كثيرة، ودخل طغرل بك نيسابور في أواخر عام ٤٣١هـ وأوائل ٤٣٢هـ، وقد ازدادت قوة السلاجقة عقب تلك الانتصارات ، وتعاهدوا على الاتحاد والتعاون فيما بينهم، وجددوا العهد لـ"طغرل بك" كقائد أعلى لجيوشهم، وسلطان لهم على دولتهم، رغم أن أخاه "داوود چغري بك" كان أكبر منه سنًا، إلا أن "طغرل بك" تميز بشجاعته النادرة، وقوة شخصيته، مع تدين ملحوظ، وذكاء حاد، وكلها صفات رجحت كفته، وهكذا قامت دولة السلاجقة .

بعد أن وطّد "طغرل بك" أركان دولته، وأرسى قواعدها، لم يبق سوى الحصول على اعتراف من الخليفة به؛ ليكسب سلطته الصفة الشرعية في أعين المسلمين، لذلك أنفذ في عام ٤٣٢هـ رسالة إلى الخليفة العباسي "القائم بأمر الله" تضمنت ولاء السلاجقة له، وتأكيد تمسكهم بالدين الإسلامي، والتزامهم بالجهاد في سبيل الله، وحبهم للعدل، والتماسهم الحصول على اعتراف الخليفة بقيام دولتهم. وكان السلاجقة في أشد الحاجة للدعم المعنوي من الخليفة العباسي صاحب النفوذ الروحي على العالم الإسلامي السني، واعترف به الخليفة العباسي في عام ٤٣٢هـ، وإن جاء الاعتراف متأخرًا، إلا أنه يبقى إعترافًا شكليًا؛ كون الخلافة في ذلك الزمان كانت تعاني الضعف، ولا تملك قوة مادية تسمح بفرض أي قرار، وهذا ما يجعل الخليفة يعترف بالسلطان المنتصر والدولة المنتصرة سواء أراد ذلك أو لم يرده، فهو خاضع للأقوى. ومع تمكن السلطان السلجوقي، توجهت أنظاره صوب العراق، وحاضرة الخلافة العباسية بغداد من جهة لبسط نفوذ دولته وتوسعها، ومن جهة أخرى لإنقاذ الخلافة والمذهب السنيَّ من السيطرة البويهية الشيعية .

اتساع رقعة الدولة السلجوقية :

بعد أن اطمأن طغرل بك –أول سلاطين السلاجقة– على دولته إثر اعتراف الخليفة العباسي بها، وتوجه أمراء السلاجقة كل إلى المنطقة المخصصة له، شرع في تنفيذ ما تبقى من خطته الرامية إلى إتمام سيطرة السلاجقة على بلاد فارس، ومن ثم التوجه منها للسيطرة على العراق، فتحرك في عام ٤٣٣هـ رأس جيش كبير من أجل تحقيق ذلك الهدف، وكان **الديالمة** يسيطرون آنذاك على معظم أجزاء بلاد فارس والعراق، ولكنهم مع

ذلك كانوا في نزاع مستمر، مما أضعفهم، وسهّل على السلطان السلجوقي- طغرل بك- التغلب عليهم، وإنهاء حكمهم، فقد كان النصر حليفه في جميع حروبه معهم، والتي انتهت بسيطرته على بلاد فارس والعراق، حيث دخل بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فقد بدأ طغرل بك بالهجوم أولاً على جرجان وطبرستان؛ من أجل القضاء على حكم "أنوشروان" الزياري الديلمي، الذي كان يسيطر على هذين الإقليمين، وإدراكًا من الأخير لقوة السلاجقة، وأنه لا طاقة له بقتال طغرل بك، قرر الخضوع له، وأعلن تعهده بطاعته، وبذلك ضم طغرل هذين الإقليمين إلى دولة السلاجقة، ومن ثم أزال حكم الزياريين الديالمة منها، وعين عليها واليًا من قبله، فكان هذا إيذانًا بسقوط الدولة الزيارية، وانتهاء نفوذها في بلاد فارس. اتجه طغرل بك بعد ذلك إلى خوارزم لفتحها وذلك في عام ٤٣٤هـ، وما إن تم له ذلك حتى سيطر على ما جاورها من المناطق، فأصبح السلاجقة أكبر قوة في بلاد فارس وما وراء النهر، وكان هذا سببًا في مسارعة حكام الأقاليم إلى إعلان طاعتهم وولائهم لهم، كل هذا أتاح الفرصة أمام طغرل بك للتوجه إلى وسط بلاد فارس، وغزو مدينة الري، والتي فتحها في العام نفسه، واتخذ منها عاصمة له، ومقرًا لحكومته، وكان لهذه الانتصارات التي حققها السلاجقة بزعامة السلطان طغرل بك في بلاد فارس وفي ما وراء النهر انعكاساتها على الخليفة العباسي القائم بأمر الله في بغداد، فما كان منه إلا أن بعث رسولاً من قبله إلى مدينة الري يحمل رسالة منه للسلطان السلجوقي يدعوه فيها لزيارة بغداد. أبلغ مبعوث الخليفة العباسي السلطان السلجوقي بأن الخليفة قد سُرَّ برسالة السلاجقة إليه كثيرًا، وردَّ عليها برد حسن تضمن موافقته على قيام دولة السلاجقة، وأن الخليفة يسره أن يستقبل سلطان السلاجقة في بغداد

عاصمة الخلافة كضيف عزيز كريم، واستقبل السلطان طغرل بك مبعوث الخليفة العباسي أحسن استقبال، ورحب بدعوته إياه لزيارة بغداد، ووعد بالقيام بها في الوقت المناسب، وظل مبعوث الخلافة في الري مدة ثلاث سنوات من أجل مرافقة طغرل بك عند توجهه لزيارة بغداد، ولكنه اضطر إلى الرجوع بمفرده إلى بغداد، بعد أن أكد له طغرل بك حرصه على هذه الزيارة، وأنه سوف يلبيها بعد فراغه من غزو الأقاليم الغربية والجنوبية من بلاد فارس. وحينما فرغ السلاجقة من بسط سيطرتهم على الأقاليم الشرقية من بلاد فارس، أخذ طغرل بك يبسط سيطرته على أقاليمها الغربية، فنجح في ذلك دون عناء كبير؛ نظرًا لضعف أمراء الديلم هناك، فخضعت له قزوين وأبهر وزنجان وهمدان وآذربايجان، ودان له حكامها بالطاعة والولاء، بعدها أرسل جيشًا لفتح كرمان التي خضعت له في شهر محرم من عام ٤٤٣هـ، وبخضوعها انتهت دولة الديالمة في تلك المنطقة، وكان طغرل بك قد حاول استغلال الوقت أثناء حصار جيشه لأصفهان، فأرسل جزءً منه لفتح إقليم فارس وما جاورها، فتمت له بذلك السيطرة التامة على المنطقة الجنوبية من بلاد فارس، بعد ذلك توجه طغرل بك بجيشه لتفقد المناطق الشمالية الغربية من بلاد فارس، وتوطيد سيطرة السلاجقة عليها، فسار في عام ٤٤٦هـ إلى إقليم آذربايجان، ودخل عاصمته تبريز، وشمل نفوذه جميع أجزاء آذربايجان، فضلًا عن بعض أجزاء من بلاد الروم بآسيا الصغرى والمتاخمة لآذربايجان، بعدها عاد إلى عاصمته الري عام ٤٤٧هـ، وهكذا شمل نفوذ السلاجقة أكثر أجزاء بلاد فارس، فضلاً عن أجزاء من الدول المجاورة لها، وبهذا أصبح طغرل بك مستعدًا لدخول بغداد عاصمة الخلافة وتلبية دعوة الخليفة، وبعد ذلك سيطر السلاجقة على معظم أنحاء العراق.

كـان طغـرل بـك قـد أرسـل أخـاه مـن أمـه "إبـراهيم ينـال" إلـى همـدان والأجزاء الغربية المجاورة لها؛ لتثبيت نفوذ السلاجقة فيها، فتوجه إليها عام ٤٣٧هـ، وهناك حدثته نفسه بالتمرد، واتخاذها قاعدة له، مما اضطر طغرل إلى التوجه نحوه بنفسه وذلك عام ٤٤١هـ، وما إن اقترب من همدان حتى أرسل إلى أخيه يطلب منه تسليمه القلاع التي تحت يديه، غير أنه رفض ذلك، فهاجمه طغرل بك، وانتصر عليه، ثم عفا عنه بعد أن استسلم له، ولم يعاقبه على تمرده. استمر طغرل بك في تفقد الأقاليم التابعة لدولة السلاجقة غربي بلاد فارس لإحكام سيطرته عليها، كما بسط نفوذه على ديار بكر بعد أن وافق حاكمها "نصر الدولة بن مروان" على ذكر اسمه في الخطبة، وإعلان طاعته وولائه للسلاجقة، وفي عام ٤٤١هـ توجه طغرل بك نحو أصفهان– التي كان قد حاصرها في عام ٤٣٨هـ–، فحاصرها وفيها حاكمها "أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، وضّيق عليه كثيرًا، إلا أنه لم يوفق في ذلك، وفي النهاية تم الصلح بين الطرفين على مال يقدمه "فرامرز بن علاء الدولة" لطغرل بك، فضلاً عن الخطبة له في أصفهان وأعمالها .

التوسع نحو الأناضول :

قام "إبراهيم ينال" بغزو الروم في عام ٤٤٠هـ، فانتصر عليهم، وغنم مغانم كثيرة، ويرجع السبب في ذلك أن جموعًا كثيرة من الغز فيما وراء النهر قد جاءوا إليه بغية الاستقرار في بلاده، ولكنه رفض ذلك، معللًا ذلك بأن بلاده ومصادرها تعجز عن حاجتهم، ونصحهم بالتوجه إلى غزو الروم، والجهاد في سبيل الله، فضلاً عن حصولهم على الغنائم، كما أخبرهم أنه سيلحق بهم ويساعدهم، فاستجابوا له، وساروا أمامه فتبعهم، فلما بلغوا

"ملاذكرد" و"أردن الروم" و"قاليقلا" و"طرابزون" واجهوا جيشًا كبيرًا من الروم والأبخاز، –تذكر المصادر أن تعداده بلغ ثمانية وخمسون ألفًا– فدار بينهم قتال شديد تبادل فيه الفريقان النصر والهزيمة، وكان النصر في النهاية حليف المسلمين، وقتلوا عددًا كبيرًا من الروم، وأسروا العديد منهم بينهم كثير من البطارقة، وكان من بين الأسرى "قاريط" ملك الأبخاز الذي فدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار، وبهدايا قُدر ثمنها بمائة ألف، ولكن لم يقبل ذلك منه، ومع ذلك فقد استمر إبراهيم ينال في غزو ونهب تلك البلاد، ولم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يومًا، ونتيجة لهذه الغارات والغزوات غنم المسلمون الكثير، وسبوا ما يزيد على مائة ألف رأس، وما لا يحصى من البغال والدواب والأموال، حتى قيل أن الغنائم كانت قد حُملت على عشرة آلاف عجلة، وكان من بين الغنائم تسعة عشر ألف درع، وكان لهذه الغزوة آثار كبيرة، فقد ألحق السلطان طغرل بك بالروم خسائر كبيرة بما قام به من نهب وقتل وأسر، وبعد ذلك توجه إلى الري، وأقام بها حتى حلول ٤٤٧هـ، وعاد بعدها إلى العراق. وقد استفادت دولة السلاجقة كثيرًا من تلك الانتصارات، فأضحت في عام ٤٤٧هـ أكبر قوة في العالم الإسلامي، وكان السلاجقة حينها قد بسطوا حكمهم على بلاد فارس، وتغلبوا على الغزنويين والبويهيين، وتوغلوا داخل الأراضي البيزنطية، وقاتلوا جيش الروم، فكانت تلك التطورات دفعة أمل كبيرة، ورد اعتبار للعالم الإسلامي بعد امتهان الروم للخلافة العباسية الضعيفة .

فتنة البساسيري في العراق ٤٥٠هـ:

كان البساسيري من القادة المقربين من الخليفة العباسي إلا أن الدعوة الفاطمية تغلغلت بين الناس وأثرت في بعض الأعيان القادة، وممن تأثر بهذه الدعوة قائد قواد الجند التركي أبو الحارث أرسلان البساسيري بدعوة هبة الله الشيرازي، وأصبح يكاتب الفاطميين ويعمل على قلب نظام الحكم في بغداد لصالح الدولة الفاطمية، وتدهورت العلاقات بين الخلافة والبساسيري حينما علم بالاتصالات السرية التي كانت تجري بين الخليفة القائم بأمر الله والسلاجقة، وبخاصة مكاتبة الخليفة لهم بالمسير إلى العراق، فترك البساسيري بغداد وسار إلى واسط، فانتهز الوزير رئيس الرؤساء الفرصة وأخذ يوغر صدر الخليفة القائم بأمر الله على البساسيري وأخبره بأن البساسيري يكاتب أعداء الخلافة ويعمل على خلعه من الخلافة. وفي الوقت نفسه حرض الأتراك والعامة على الاعتداء على أملاك البساسيري في بغداد بعدما ظهرت ميوله الشيعية، وظهرت نواياه السيئة للخلافة العباسية وأهل السنة، فقاموا بنهب داره والاستيلاء على ممتلكاته سنة ٤٤٧هـ، وفضلاً عن ذلك، أخذ رئيس الرؤساء يؤلب الأترك البغداديين على قائدهم البساسيري، واتهامه بأنه المتسبب في نقص رواتبهم وسوء أحوالهم، فسار جماعة منهم إلى الخليفة القائم بأمر الله واستأذنوه في نهب دور البساسيري، فلما تأكد من صحة ما نسب إليه أذن لهم في ذلك، خاصة بعد أن قدم إليه طائفة من الأتراك من أصحاب البساسيري بواسط وأخبروه بما عزم من نهب دار الخلافة، والقبض على الخليفة . وبفضل جهود السلاجقة، تخلصت الخلافة العباسية من النفوذ البويهي الشيعي في إيران والعراق، فقد نشب نزاع داخلي

في الدولة البويهية كان في صالح السلاجقة الذين استنجد بهم الخليفة "القائم بأمر الله" في عام ٤٤٧هـ، بعد أن سيطر البساسيري (أكثر الرجال نفوذًا في الدولتين البويهية والعباسية آنذاك)على الدولة، وصار يهدد وجود الخلاف العباسية، فقد أدى خروج إبراهيم ينال على طاعة أخيه، ومسير طغرل بك في أثره لمحاربته، إلى خلو بغداد من الحامية السلجوقية، مما أتاح للبساسيري الفرصة للاستيلاء على حاضرة الخلافة العباسية، والخطبة فيها للفاطميين، فزحف إليها على رأس أربعمائة فارس، حاملاً الرايات الفاطمية التي طرزت باسم "الإمام المستنصر بالله أبو تميم معد أمير المؤمنين"، وأقيمت الخطبة للخليفة المستنصر بالله الفاطمي بجامع المنصور(١٣من ذي القعدة٤٥٠هـ). سار طغرل بك إلى بغداد في العام نفسه، وأمر الخليفة العباسي بأن يُخطب لطغرل فيها قبل ثلاثة أيام من وصوله، ثم فتح طغرل بغداد في رمضان عام٤٤٧هـ، وهرب منها البساسيري والملك الرحيم–آخر ملوك البويهيين–، فأرسل طغرل بك جيشًا إلى نواحي الكوفة؛ لمنع البساسيري من الوصول إلى بلاد الشام، وخرج هو في التاسع والعشرين من الشهر مع بقية الجيش، وفي تلك الأثناء كان البساسيري يعد العدّة في "واسط"؛ لقتال طغرل، واستعادة بغداد، لكن جيوش طغرل وصلت إليه، والتحمت بجنوده، فهُزم البساسيري ولاذ بالفرار بمفرده، فطاردته مجموعة من الغلمان وقتلوه، وطيف برأسه في أرجاء بغداد[١].

استطاع طغرل بك إسقاط الدولة البويهية في بغداد عام٤٤٧هـ، وقضي على الفتن، كما أزال سبّ الصحابة من على أبواب المساجد، وقتل شيخ

---

(١) انظر: علي محمد محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطنى والغزو الصليبى، ص٣٣-٣٥ ، ٤٣- ٥٠

الروافض "أبا عبد الله الجلاب". عقب تلك الانتصارات دخل طغرل بغداد واستقبل استقبالًا عظيمًا، وخلع عليه الخليفة خلعة سنية، وأجلسه إلى جواره، وأغدق عليه ألقاب التعظيم، ونقش اسمه على العملة، وذُكر اسمه في الخطبة بالمساجد، وبهذا حلّ السلاجقة محل البويهيين في السيطرة على أمر بغداد، وقد أحسن السلاجقة معاملة الخلفاء العباسيين، وأقرّوا المذهب السنيّ في البلاد بعكس البويهيين. وتوطدت العلاقات بين السلاجقة والعباسيين كثيرًا، حيث تزوج الخليفة "القائم بأمر الله" من "أرسلان خاتون خديجة" ابنة "داوود چغري بك"، أخي طغرل، بينما تزوج طغرل من ابنة الخليفة العباسي، والذي كان قد تألم حين طلبها منه، واستعفى فلم يعف، فزوجه بها.

توفي السلطان طغرل بك في شهر رمضان٤٥٥هـ/١٠٦٣م، ولم يترك خلفه ولدًا. وكان طغرل عاقلًا حليمًا، كثير الاحتمال شديد الكتمان للسر، محافظًا على الصلوات والصوم، مواظبًا على لبس البياض، وبلغ عمره يوم موته سبعين سنة، وكان كثير الصدقات حريصًا على بناء المساجد متعبدًا متهجدًا، ويقول: أستحي من الله أن أبني دارًا ولا أبني بجانبها مسجدًا .

٢- ألب أرسلان :

السلطان ألب أرسلان هو أبو شجاع محمد بن جغر بك داؤد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب بعضد الدولة ألب أرسلان، وهو ابن أخي السلطان طغرلبك، ولد عام ٤٢٤هـ- على الأرجح - وبذلك كان عمره عندما تولّى حكم الدولة السلجوقية واحداً وثلاثين عاماً، وقد بدت عليه

ملامح قوة الشخصية وحسن الإدارة منذ أن كان يساعد والده في إدارة حكم إقليم خراسان، حتى وفاة أبيه عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨م في مدينة بلخ .

بعد وفاة السلطان طغرل، قام وزيره "عميد الملك الكندري" بتنفيذ وصيته، وأجلس على العرش السلجوقي "سليمان بن داوود چغري بك"، وهو ابن أخي السلطان طغرل، رغم صغر سنه، وكان داوود چغري بك قد توفي عام ٤٥١هـ قبل أخاه طغرل، فخلفه ابنه الأكبر ألب أرسلان في حكم خراسان وبلاد ما وراء النهر، لكن ألب أرسلان لم يقبل بسلطنة أخيه الأصغر سليمان، فصمم على التوجه إلى الري، ولاقى عزمه هذا صدى في نفوس كثير من أفراد البيت السلجوقي، وقادة الجيش، فانحازوا إلى صفه، وأمام خطورة الوضع أمر الوزير الكندري بقراءة الخطبة في الري باسم ألب أرسلان، وأن يتولى سليمان بعده، وبذلك استتب الأمر لـ" ألب أرسلان" منذ عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وقد تمكن نظام الملك وزير ألب أرسلان بما أوتي من حيلة ودهاء وحكمة من الإيقاع بالوزير عميد الملك الكندري، وحمل السلطان على سجنه ثم قتله، وقد برز أمير آخر هو "قتلمش بن إسرائيل" ابن عم چغري بك، حيث رأى أنه أحق بالسلطنة، ومن ثم استولى على الري بقواته، وأعلن نفسه سلطانًا على السلاجقة، فأسرع ألب أرسلان إلى الري على رأس جيش كبير ومعه وزيره نظام الملك، واشتبك مع "قتلمش" في معركة طاحنة قرب الري انتهت بانتصار ألب أرسلان، وقتل "قتلمش"، ودخل ألب أرسلان الري في عام٤٥٦هـ/١٠٦٤م، ومن ثم انتهت مشكلة النزاع على السلطنة، واستتب الأمر للسلطان ألب أرسلان بلا منازع، فسار في الناس سيرة حسنة،

وقد اعتمد على "نظام الملك" في الوزارة، وهو وزير أتقن عمله، وأحسن إكرام العلماء والفقراء، وساهم في حفظ وحدة الصف، وإخماد الفتن بشكل مبهر.

كان ألب أرسلان –مثل عمه طغرل بك– قائداً ماهراً مقداماً وقد اتخذ سياسة خاصة تعتمد على تثبيت أركان حكمه في البلاد الخاضعة لنفوذ السلاجقة، قبل التطلع إلى إخضاع أقاليم جديدة، وضمها إلى دولته، أو القيام بأي توسع خارجي، كما كان متلهفاً للجهاد في سبيل الله، ونشر دعوة الإسلام في داخل الدولة المسيحية المجاورة له، مثل بلاد الأرمن وبلاد الروم، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قام بها ألب أرسلان وأكسبتها صبغة دينية، وأصبح قائد السلاجقة زعيماً للجهاد، وحريصاً على نصرة دين الإسلام ونشره في تلك الديار، ورفع راية الإسلام خفاقة على مناطق كثيرة من أراضي الدولة البيزنطية . وحينما اطمأن على استتباب الأمن، وتمكن حكم السلاجقة في جميع الأقاليم والبلدان الخاضعة له، أخذ يخطط لتحقيق أهدافه البعيدة، وهي فتح البلاد المجاورة لدولته، وإسقاط الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيد العالم الإسلامي تحت راية الخلافة العباسية السنية، ونفوذ السلاجقة، وكانت روح الجهاد الإسلامي هي المحركة لحركات الفتوحات التي قادها ألب أرسلان، فأعد جيشًا كبيرًا اتجه به نحو بلاد الأرمن وجورجيا، فافتتحها وضمها إلى مملكته، كما عمل على نشر الإسلام في تلك المناطق، وأغار على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية في حلب، والتي أسسها "صالح بن مرداس" على المذهب الشيعي سنة ٤١٤هـ، وأجبر أميرها "محمود بن صالح بن مرداس" على إقامة الدعوة للخليفة العباسي عام٤٦٢هـ، وسيطر على الرملة

وبيت المقدس، ولم يتمكن من عسقلان التي تعدّ بوابة الدخول إلى مصر، وبذلك أضحى السلاجقة داخل بيت المقدس(١) .

معركة ملاذ كرد التاريخية :

قام ألب أرسلان بحملة كبيرة ضد الأقاليم المسيحية المجاورة لحدود دولته، وقاد جيشه نحو جنوب آذربايجان، واتجه غربًا لفتح بلاد الكُرج المناطق المطلة على بلاد البيزنطيين، وكان سكان الكرج يكثرون من الغارة على آذربايجان، فأصبحوا مصدر قلق لسكان المنطقة، وانضم إليه وهو في مدينة "مرند" في آذربايجان أحد أمراء التركمان ويدعى "طغتكين"، وكان دائم الإغارة على تلك المنطقة، واجتاز الجيش السلجوقي نهر "الرس"، في طريقه إلى بلاد الكُرج، وفصل ألب أرسلان أثناء زحفه، قوة عسكرية بقيادة ابنه ملكشاه ووزيره نظام الملك هاجمت حصونًا ومدنًا بيزنطية وفتحها، واستمرت فتوحاته الكبيرة في الأراضي الأرمينية، ويبدو أن ملك الكُرج هاله التوغل السلجوقي في عمق المناطق الأرمينية، فهادن ألب أرسلان وصالحه على دفع الجزية، ونتيجة لهذا التوغل السلجوقي أضحى الطريق مفتوحًا أمام السلاجقة للعبور إلى الأناضول بعد أن سيطروا على قلب أرمينيا، فأغاروا على المناطق الحدودية، واستولوا على دروب الأمانوس في عام ٤٥٩هـ، وهاجموا قيصرية، وقد جرى كل ذلك ولم يبذل الإمبراطور البيزنطي جهدًا كبيرًا لمقاومة هذه الغارات، مما شجعهم على التوغل في عمق الأناضول، فوصلوا إلى نيكسار وعمورية في عام ٤٦١هـ وإلى قونية في العام التالي، وإلى خونية القريبة من ساحل بحر إيجه في عام ٤٦٣هـ، وقد شكل فتح

---

(١) انظر: د.محمد عبد العظيم يوسف: السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، القاهرة ٢٠٠١، ص٧٧-٨٤

السلاجقة لبلاد الكرج والقسم الأكبر من أرمينيا، تحديًا لبيزنطة وبخاصة بعد أن أدرك الإمبراطور البيزنطي أن ألب أرسلان يصبغ غزوه للبلاد بصبغة الجهاد الديني، وهو يطبع المناطق المفتوحة بالطابع الإسلامي، مما جعل نشوب الحرب بين المسلمين والبيزنطيين أمرًا لا مفر منه. خرج إمبراطور الروم (رومانوس ديوجينوس) في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية، وقدر ذلك الجمع بثلاثمائة ألف جندي لملاقاة السلطان السلجوقي، الذي ما إن علم باقتراب الروم ومن معهم حتى استعد للأمر، واحتسب نفسه ومن معه، وكان في قلة من أصحابه لا تقارن بعدد الروم وأتباعه، قيل إنهم قرابة خمسة عشر ألفًا، ولم يكن لديه وقت لاستدعاء المدد من المناطق التابعة له، وقال قولته المشهورة: أنا أحتسب عند الله نفسي، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي ويومي خير من أمسي، وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء، وكان فيها عشرون ألفًا معظمهم من الروس، فأحرز المسلمون عليهم انتصارًا عظيمًا، وتمكنوا من أسر معظم قادتهم. ثم أرسل السلطان ألب أرسلان من قبله وفدًا إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة، فلم يقبل بالعرض، وقال: هيهات!! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل ما فُعل ببلاد الروم، وجاء في رواية: لا هدنة إلا ببذل الري، فحمى السلطان وشاط، وأعد المسلمون العدة للمعركة الفاصلة واجتمع الجيشان في يوم الخميس ٢٥من ذي القعدة ٤٦٣هـ، فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر، ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع، وقال لهم: "نحن مع القوم تحت الناقص، وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يُدعي فيها

لنا وللمسلمين على المنابر، فإما أن أبلغ الغرض، وإما أن أمضي شهيدًا إلى الجنة، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحبًا فما ها هنا سلطان بأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغازٍ معكم، فمن تبعني، ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة أو الغنيمة، ومن مضى حقت عليه النار والفضيحة"، فقالوا: "مهما فعلت تبعناك فيه وأعناك عليه "، فبادر ولبس البياض، وتحنط استعدادًا للموت وقال: "إن قُتلت فهذا كفني". واندلع القتال بين الطرفين، فنزل ألب أرسلان عن فرسه، ومرغ وجهه بالتراب، وأظهر الخضوع والبكاء لله تعالى، وأكثر من الدعاء، ثم ركب فرسه، وانغمس في الأعداء، ففتح الله عليه فتحًا مبينًا، وقتل السلاجقة من الروم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم جموعًا كبيرة، كان على رأسهم إمبراطور الروم نفسه، فأُحضِر ذليلًا إلى السلطان . وقد قبل فيه السلطان الفداء، فافتدى نفسه بألف ألف دينار وخمس مئة ألف دينار، وإطلاق كل أسير في بلاده، فأطلق سراحه، وبعث معه عدة، وأعطاه نفقة توصله، لكن الروم بعد هزيمة قائدهم ملَّكوا آخر هو "ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس"، وكان مصير رومانوس المنهزم الاعتقال وسمل عينيه .

نتائج ملاذكرد، ٤٦٣هـ:

ترتب على النصر الذي حققه المسلمون في معركة ملاذكرد نتائج آنية ومستقبلية مهمة، منها:

١– تعد معركة "ملاذكرد" من المعارك الفاصلة في التاريخ ويسميها بعض المؤرخين باسم الملحمة الكبرى، وتعد أكبر نكسة في تاريخ الإمبراطورية

البيزنطية وأصبحت الأراضي البيزنطية تحت رحمة السلاجقة، وبذلك يكون السلاجقة قد تابعوا الجهاد الذي قام به المسلمون ضد الروم.

٢- لم يكن هذا النصر نصرًا عسكرياً فقط بل كان نصراً دعوياً للإسلام، إذ انتشر السلاجقة في آسيا الصغرى عقب معركة ملاذكرد وضموا إلى ديار الإسلام مساحة تزيد على ٤٠٠ ألف كم، عم الإسلام تلك الجهات منذ ذلك الوقت ولم يكن دخلها أبداً من قبل .

٣- كانت هزيمة البيزنطيين في ملاذكرد نقطة تحول في التاريخ الإسلامي البيزنطي، فلأول مرة يقع الإمبراطور نفسه أسيراً في أيدي المسلمين، فهي لا تقل أهمية عن اليرموك ونتائجها، فإذا كانت هذه الأخيرة قررت مصير بلاد الشام، فإن الأولى قد قررت مصير آسيا الصغرى، التي نجح الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، وكانت بذلك لبنة اجتثت من بناء الدولة البيزنطية فمهدت لسقوطها، ولأول مرة استطاع الأتراك السلاجقة أن يحرزوا مكاناً ثابتاً في تلك البقاع، ومنُذ ذلك الحين فقد القادة والجند شجاعتهم، ولم تحرز الإمبراطورية نصراً على الإطلاق.

٤- قضى السلاجقة على التحالف البيزنطي الفاطمي، واضطرت بيزنطة إلى مصالحتهم، أما أرمينيا فقد زالت منها الإدارة البيزنطية بعد أن هجرها سكانها وخضعت المدن الأرمينيا للسلاجقة، كما انهار نظام الدفاع البيزنطي الذي تولاه أمراء التخوم، وبذلك تعرض نظام الثغور لضربة قاسية لاسيما أن بيزنطة لجأت بعد المعركة إلى إنزال حاميات من الجند المرتزقة في أرمينيا، ولم تحاول الاستعانة بالسكان الأصليين .

٥- كانت معركة ملاذكرد أشد ما وقع في التاريخ البيزنطي من كوارث، بل إنها أكبر كارثة حلت بالإمبراطورية البيزنطية حتى نهاية القرن الخامس الهجري، وجاءت دليلاً على نهاية دور الدولة البيزنطية في حماية النصرانية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوربا من غزو المسلمين. كما أن هذه المعركة مهدت الطريق ويسرت السبل للقضاء على سيطرة البيزنطيين على أكثر أجزاء منطقة آسيا الصغرى، مما ساعد على القضاء على الدولة البيزنطية نفسها، بعد ذلك على أيدي الأتراك العثمانيين.

٦- يعد الأتراك أكثر العناصر العسكرية الأجنبية إفادة من الأوضاع المضطربة التي سادت المجتمع البيزنطي والوضع السياسي بعد معركة ملاذكرد . فقد حاولت الأطراف البيزنطية المتنازعة الاستعانة بالقوات التركية ضد بعضها البعض مما أتاح للسلاجقة، التوغل في صميم الحياة البيزنطية.

٧- أقدمت السلطات البيزنطية في القسطنطينية على عزل الإمبراطور رومانوس الرابع وأجلست مكانه ميخائيل السابع بن قسطنطين العاشر دوقاس، وحاول رومانوس في غمرة هذا الصراع أن يستعين بالقوات التركية، غير أن الهزيمة لحقت به وتقرر إلقاء القبض عليه وسمل عينيه.

٨- انتهج معظم الأباطرة البيزنطيين بعد رومانوس الرابع نهجه في الاستعانة بالأتراك كلما واجهتهم محنة، فعندما أعلن روبيل بايليل قائد قوات الفرنج المرتزقة العصيان على الدولة البيزنطية استعان ميخائيل السابع بالقوات التركية لقمع حركته .

٩- لقد حقَّق ألب أرسلان هدفه، إذ كفل الحماية لجناح جيشه، وأزال خطر التقارب بين بيزنطة والفاطميين، وانصرف بعد ذلك لمواصلة القتال في إقليم ما وراء النهر حيث قضى نحبه عام ٤٦٥هـ ولم ينفذ ابنه وخليفته في الحكم، ملكشاه، إلى آسيا الصغرى، غير أن رعاياه من الأتراك اتخذوا من سهول وسط آسيا الصغرى، مراعى تنتجعها الأغنام، وعهد إلى ابن عمه سليمان بن قُتلمش بأن يستولي على هذا الإقليم لصالح الأقوام التركية.

سجل التاريخ غزو ألب أرسلان لبلاد الروم مرتين، ثم سار إلى أصفهان ومنها إلى كرمان، وذهب إلى شيراز ثم عاد إلى خراسان، وكاد يتملك مصر، لكن قدر هذا الفاتح المسلم العظيم كان أن يلقى ربه قريبًا بعد نصره في ملاذكرد. قصد السلطان ألب أرسلان ما وراء النهر في عام ٤٦٥هـ، وعبر نهر جيحون، في مائتي ألف فارس، وقد جيء إليه بأحد الثائرين موثوقًا، ويدعى يوسف الخوارزمي، وهو صاحب قلعة بهذا الاسم، فأمر أن تُضرب له أربعة أوتاد لتشد أطرافه الأربعة إليها ويعذبه، ثم يقتله، وما لبث أن أمر بفك وثاقه، ثم تناول سهمًا وأطلقه عليه، وكان جالسًا على سريره، فأخطأه، فنزل فعثر ووقع على وجهه، فبادره يوسف، وضربه بسكين كانت معه في خاصرته، وحُمل السلطان الجريح إلى خيمة أخرى للعلاج، وأحضر وزيره نظام الملك وأوصاه بولاية العهد لابنه ملكشاه، وتوفي بعد أربعة أيام(١٠ربيع الأول٤٦٥هـ/٢٤ نوفمبر١٠٧٢م)، وكان عمره ٤٠سنة، وقيل ٤١ سنة، ودفن بمرو بجانب والده[١] .

([١]) انظر: د.محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، ط٢، بيروت ٢٠١٦م ، ص١١٨ ، علي محمد محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطنى، ص ٦١- ٦٣

٣- ملكشاه بن ألب أرسلان :

انتقل حكم الدولة السلجوقية إلى ملكشاه بن ألب أرسلان، ودبّر دولته الوزير نظام الملك تحت وصية ألب أرسلان، وكان ألب أرسلان والوزير نظام الملك قد أعدا ملكشاه إعدادًا ملكيًا، ودرباه تدريبًا سلطانيًا، وعلماه من معين العلم، كما لم يكتف ألب أرسلان ونظام الملك بتدريبه نظريًا على العلوم العسكرية بل أنزلاه ميادين القتال، حتى ألفها وتمرسها، ولقناه أصول الحكم وتدبير شئون الرعايا بالممارسة وليس عن ظهر قلب، فحكم جيلان بأمر رسمي من السلطان قبل أن يرث السلطنة، وتولى ملكشاه السلطنة سنة ٤٦٥هـ وعمره ١٨عامًا، وتتفق المصادر التاريخية على أن الوزير نظام الملك كان له الفضل الأكبر في إرساء دعائم الدولة وانتصاراتها الحربية والفكرية والعقائدية على الباطنية والفلاسفة في عصر ملكشاه، وذلك باهتمامه الكبير بعلماء أهل السنة، ونشر المدارس النظامية في أرجاء الدولة السلجوقية، التي تعد مثالًا رائعًا يحتذى به في بناء الدول، وصناعة الأجيال. وعرف عصر ملكشاه نهضة علمية وعسكرية، فبرع في الحروب، وارتفع العمران وانتشرت القناطر، وظهرت معالم الحضارة الراقية في كل ربوع مملكته، وأسقط المكوس والضرائب ، حتى عدّه أحد المؤرخين المؤسس الحقيقي للإمبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف، ويرجع الفضل في ذلك لنشاط وحنكة وزيره نظام الملك .

خطب المسلمون في عصر ملكشاه للسلاجقة من أقصى بلاد الترك، إلى أقصى بلاد اليمن، ومن حدود الصين، إلى آخر الشام. واهتم ملكشاه برعيته أيما اهتمام، وأرسى قواعد الأمن والعدل بينهم، وكان يسمع

احتياجاتهم بنفسه وإن بعدت المسافة، فقد كان يجوب أرض مملكته ليعاينها بنفسه، ويرافقه في ذلك نظام الملك في جميع سفراته وجولاته، وهو الذي يدبر الأمور له.

بذل السلاجقة جهوداً كبيرة للسيطرة على بلاد الشام، وبعد أن ثبَّت ملكشاه أقدامه في الحكم واطمأن على سلطنته التفت إلى بلاد الشام، وأحيا مشروع أبيه السلطان ألب أرسلان بغزو هذه البلاد وضم مصر إليها والقضاء على الدولة الفاطمية، فاختار أن يولي على هذه الجبهة البعيدة أميراً سلجوقياً أخاه "تاج الدولة تتش"، ويشغله في نفس الوقت عن التفكير بالشغب عليه أو منافسته، ويؤمّن الإقطاع لقسم كبير من الجيش السلجوقي المتزايد، وكان تتش قد اختص بمجموعة من المماليك الذين يتولون تربيته وتدريبه وشنّ الحملات باسمه والدفاع عنه، على عادة السلاجقة، لأنه كان لا يزال فتى، وسرعان ما انتشرت الأخبار بما عزم السلطان عليه وبلغت مسامع أتسز الخوارزمي صاحب بلاد الشام، فكتب للسلطان يشرح له ما بذله من جهد في خدمة الدولة السلجوقية، وأنه ما يزال الخادم المطيع، ووعده بدفع مبلغ ثلاثين ألف دينار في السنة مقابل إبقائه حاكماً على بلاد الشام، وأصرّ ملكشاه على تنفيذ مشروعه فولى أخاه تاج الدولة تتش حكم بلاد الشام وما يفتحه في تلك النواحي، -كما أشرنا-، وأمره بالمسير إليها، وكتب إلى القوى المتمركزة في إقليم الجزيرة وبلاد الشام بالانضمام إليه ومساعدته كان من بينهم مسلم بن قريش العقيلي أمير الموصل ووثاب بن محمود، وزعماء القوى التركية، غير أن هذه النجدة لم تصل إلى حلب وتشتتَّ قبل ذلك، حيث قضى عليها سابق حاكم حلب بالتعاون مع مسلم بن قريش في وادي

بزاعة، فتحرّج موقف تتش نتيجة ذلك، وما إن ابتعدت قواته عن أسوار حلب وهي تطارد البدو حتى خرجت القوات الحلبية من وراء الأسوار وهاجمت معسكراته وغنمت ما كان فيها، ويبدو أنه لم يحقق أي نجاح في مطاردته للعرب، عندما علم بنهب معسكراته، قرّر عبور الفرات للانتقام من مسلم بن قريش، ولكن هذا الأخير كان يقظاً، فاضطر مكرها إلى التخلي عن خطته وذهب إلى ديار بكر حيث أمضى فصل الشتاء في مضارب بني مروان، وهكذا تفرق التحالف الذي أنشأه السلطان ملكشاه، وأخفق أمام أسوار حلب وكتب تتش من مشتاه إلى أخيه يشرح له ما آلت إليه الأوضاع في شمالي بلاد الشام ويطلب منه نجدة أخرى، ثم غادر مع قواته الجديدة التي وصلت إليه متوجها إلى حلب للاستيلاء عليها إلا أنه فشل وغادر وقواته المنهكة مدينة حلب بعد أن أدرك عدم جدوى الاستمرار في الحصار والاستيلاء على حلب، فيمم وجهه نحو دمشق .

غادر تتش وقواته المنهكة مدينة حلب وفي نفسه شيء منها متجهاً نحو الجنوب، فاستولى على حماة والمعرة وما جاورهما، وأطاعه أمير حمص خلف بن ملاعب، فأقرّه على حكمها. وإذا كان التوغل السلجوقي في بلاد الشام قد بدأ بوصول تتش، إلا أنه لم يحقق حتى ذلك الوقت أي إنجاز يذكر وتبين من خلال أعماله أنه كان عسوفًا ذا سطوة وجبروت وظلم وتدمير وسلب ونهب، وقد سنحت له الفرصة ليضع يده على مقدرات بلاد الشام ويؤسس دولة سلجوقية في ربوعها وكان لذلك علاقة بالمحاولات الفاطمية الهادفة إلى استعادة نفوذ الفاطميين في هذه البلاد، فقد حدث أن أرسل بدر الجمالي جيشاً فاطمياً بقيادة ناصر الدولة الجيوشي إلى بلاد الشام لإعادة

بسط السيادة الفاطمية عليها فحاصر دمشق عام ٤٧١هـ واستولى على أعمالها وأعمال فلسطين، وأدرك أتسز أنه لا قبل له بهذا الجيش الكبير فاضطر أن يطلب المساعدة من تُتُش، ووعده بتسليمه دمشق ويكون تابعاً له ، وكان هذا هو الحل الوحيد أمامه، وهو أن يضع نفسه تحت الحماية المباشرة للسلاجقة العظام، رحب تتش بهذه الدعوة، وكان ينوي متابعة زحفه إلى دمشق بعد فشله أمام حلب، وسار قاصداً المدينة لنجدتها ولم يكن يقترب منها حتى فكّ ناصر الدولة الجيوشي الحصار عنها وانسحب باتجاه الجنوب، لأن قواته كانت عاجزةً عن أن تقف في وجه القوة السلجوقية، وبخاصة أن طرابلس وصور امتنعتا عن تقديم المساعدة له، بل إن حاكميها صانعا السلاجقة بالهدايا والملاطفات، وعندما وصل تتش إلى مرج عذراء الواقع إلى الشمال الشرقي من دمشق استقبله أتسز، فبذل له الطاعة وسلمه البلد وبعد أن أقام بضعة أيام في مرج عذراء توجّه إلى المدينة، فاستقبله أتسز عند أسوارها ولم يذهب أبعد من ذلك للقائه، فاغتاظ منه تُتُش وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبله، ويبدو أن تُتُش خشي من طموحات أتسز، ولم يطمئن إلى وجوده إلى جانبه، فاتخذ من ذلك حجة وتخلص منه، كما قتل أخاه جاولي وتسلم دمشق دون قتال، وأسس لنفسه ولأسرته حكماً فيها، وبذلك أضحى تتش يسيطر على الأقاليم الوسطى من بلاد الشام، وجهد بعد ذلك للعمل على بسط سلطاته على كامل بلاد الشام وبخاصة المدن الساحلية التي كانت تدين بالطاعة للدولة الفاطمية أو تُحكم من قبلها مباشرةً وإنشاء دولة أخرى للسلاجقة في هذه البلاد يتولى حكمها بمعزل عن السلاجقة العظام في خراسان وفارس(١).

(١) انظر: علي محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة، ص ٦٩- ٧٠

ظهرت في زمان ملكشاه سلطنة **سلاجقة الروم** التي أسسها "سليمان بن قتلمش"، الذي يعد بحق جد سلاطين آسيا الصغرى، وكانت سلطنته من بركات معركة ملاذكرد، واستقرت في قونية وآقسرا وقيصرية وغيرها من المدن في آسيا الصغرى وكانت تحت سيادة ملكشاه، وكانت مدينة نيقية عاصمة له. وقد توفي الخليفة القائم بأمر الله العباسي سنة ٤٦٧هـ في عهد ملكشاه، وتولى الخلافة من بعده "المقتدي بالله"، لكن علاقته مع ملكشاه تدهورت كثيرًا؛ بسبب سوء الفهم بين المقتدي وزوجته "خاتون" ابنة السلطان ملكشاه، فأعاد الأخير ابنته من بغداد إلى قصره في موكب عظيم، وذلك بعد أن اشتكت له من زوجها الخليفة، ولكنها ما كادت تستريح في بيت والدها حتى فارقت الحياة في نفس السنة. وتسبب موتها في إيغار صدر ملكشاه على "المقتدي"، فبدأ يضغط عليه، ويعمل على إذلاله، وانتهى بطرده من بغداد، ولم يمهله ساعة للخروج منها، ولولا تدخل "تاج الملك أبي الغنائم" وزير زوجة ملكشاه "تركان خاتون"، لما حصل على ١٠ أيام ليرتب خروج، ولم يجد "المقتدي" إلا اللجوء إلى الله يدعوه ليل نهار أن يفرج كربه، ويخرجه من هذا المأزق، فكان يقضي ليله قيامًا، ونهاره صيامًا في خشوع وتضرع، وقبل أن تنتهي العشرة أيام، خرج السلطان ملكشاه للصيد، لكنه رجع مريضًا بشدة، ووافته المنية، فكان موته نجاة للمقتدي الذي تخلص من عار محقق، ومأساة واقعة، وكان قد وصل لدرجة ضعف لا يحسده عليها عدو، وبموت ملكشاه(١٥شوال٤٨٥هـ/١٠٩٢م) انقضى العصر الذهبي لدولة السلاجقة العظام، وبدأ عهد الانقسامات السياسية والحروب بين ورثة العرش السلجوقي ، مما أدى إلى تشتيت صفوفهم، وإضعاف سلطتهم .

الوزير نظام الملك :

شخصية نظام الملك نموذج رائع لنجاح رجل في صناعة مجد أمة، فقد تمكن هذا الوزير الملهم من إعادة هيبة الخلافة والدولة بذكاء وبصيرة، وشهد التاريخ لنظام الملك أنه كان أول من أنشأ المدارس، فاقتدى به الناس، وشرع في عمارة مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٧هـ، وضبط نظام الملك الحكم لما تولى ملكشاه السلطة، حيث انفلت العسكر وبسطوا أيديهم على أموال الناس، وكان ملكشاه قد أوكل له المسئولية الكاملة، فنجح في عمله بشكل أثلج الصدور، وعمل على نشر العلم وتقدير أهله، وعلى رفع مرتبة العلم والعلماء والمكتبات. وكان عالما فقيهًا دينًا خيرًا متواضعًا عادلًا يحب أهل الدّين ويكرمهم ويجزل صلَاتهم، وأما صدقاته ووقوفه فلا حد عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد من شئ منها، وكان مجلسه عامرًا بالقراء، والفقهاء، وأئمة المسلمين، وأهل الخير والصلاح. وتعد المدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك، واهتم بها، أحد أبرز معالم القوم للأمة المسلمة منذ عصر السلاجقة إلى صلاح الدين، فقد كانت تهدف إلى صناعة الرجال علمًا وخلقًا، ووارتقاء النفوس والهمم، فخرج منها الشيرازى والجوينى والغزالي وابن عساكر والعز بن عبد السلام، وكذلك عماد الدين ونور الدين وصلاح الدين الأيوبي .

وجد نظام الملك كل الدعم من أبي حامد الغزالي والجويني وبقية العلماء، كما دعمهم نظام الملك بدوره دعمًا معنويًا وماديًا. واهتم الوزير العبقري بالتنظيمات الإدارية حيث أشرف بنفسه على رسم سياسة الدولة الداخلية والخارجية بشكل كبير، مستفيدًا من فهمه ومعرفته بنظم الإدارة،

حيث ألف كتاب "سياست نامه" جمع فيه عصارة الآراء والنظريات الإدارية التي تعتبر أساسًا لنظام الحكم وإدارة الدول والممالك، كما كان شديد الحرص على إرسال المخبرين إلى جميع الأطراف في هيئة التجار والسياح والمتصوفة والدراويش وغيرهم يتنسمون الأخبار ويرسلونها للسلطان أولًا بأول حتى لا يخفى عليه شيء من أمور مملكته. وقد نجح نظام الملك في إحباط العديد من المؤامرات والفتن التي كانت تتربص بالدولة السلجوقية، وكان شوكة في حلوق المبتدعة والضالين، كما راقب العمال تحت حكمه حتى ينضبط الجميع بالنظام. وعن وفاته، فيروى أنه خرج مع السلطان ملكشاه في يوم العاشر من رمضان عام ٤٨٥هـ، من أصفهان قاصدًا بغداد، فاجتاز في بعض طريقه قرية بالقرب من نهاوند، وحان وقت الإفطار فصلى المغرب وجلس على السماط وعنده خلق كثير من الفُقَهاء والقراء والصوفية وأصحاب الحوائج، فجعل يذكر شرف المكان الذي نزلوه من أرض نهاوند وأخبار الْوَقْعَة التي كانت به بين الفرس والمسلمين في زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-، ومن استشهد هناك من الأعيان ويقول:"هذا الموضع قُتل فيه خلق كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنهم أجمعين- فطوبى لمن كان معهم". فلما أفطر جاءه صبي ديلمي في هيئة مستغيث، فلما أجابه نظام الملك، غدر الصبي به بضربه بسكين في فؤاده، وهرب ثم عثر عليه فقُتل. وقيل أن الاغتيال كان من تدبير الحسن الصباح، وقيل أن مقتله كان بتدبير من تركان خاتون زوجة ملكشاه. وجاء السلطان ملكشاه عند نظام الملك فبكاه وهو يجود بنفسه حتى مات شهيدًا، وحُمل إلى أصفهان ودفن بها .

توفى السلطان ملكشاه عام٤٨٥هـ/١٠٩٢م، بعد أقل من شهر من وفاة الوزير نظام الملك، وترك خلفه٤ أبناء ذكور من٣ زوجات، هم: بركيارق من زوجته زبيدة وكان أكبرهم، وابنيه الثاني والثالث، محمد وسنجر من جاريته المملوكة واسمها تاج الدين خاتون السفرية وابنه الرابع محمود وهو أصغرهم، من زوجته تركان خاتون، فضلًا عن بناته. وفقدت الدولة السلجوقية بوفاته أهم ركائزها، وبدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصالها خاصة مع الاقتتال على الملك الذي نشب بين أبناء السلطان وإخوته وأحفاده .

الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه:

تفككت الدولة السلجوقية بعد وفاة السلطان ملكشاه، وبدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصالها بين أبنائه وإخوته وأحفاده، فضعفت بالتالي سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها، ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف تنافس الأمراء على عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقسامًا كبيرًا، دب الضعف في أوصال دولة السلاجقة على أثر الانقسامات بين أمراء السلاجقة، وفي عام٥٣٦هـ/١١٤١م انهزم السلطان سنجر، آخر السلاطين السلاجقة العظام الأقوياء أمام القراخطائيين، وبمقتل السلطان سنجر على أيدي الغز عام ٥٥٢هـ/١١٥٧م، زالت دولة السلاجقة العظام في فارس، فقد أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانهيار بعد سنجر وذلك في عهد الخليفة الناصر لدين الله، الذي استقر رأيه على الاستعانة بعلاء الدين تكش خوارزم شاه ضد السلطان طغرل، فأرسل إلى خوارزم شاه شاكيًا من السلطان طغرل السلجوقي، ويطلب من خوارزم شاه أن يساعده عليه، وأرفق الرسالة بمنشور يقضي بإقطاع خوارزم شاه كل البلاد التي

كانت آنذاك تحت نفوذ السلاجقة، فلبى خوارزم شاه رغبة الخليفة العباسي، وسار على رأس جيشه لقتال السلطان طغرل، والتقى به قرب الري منتصف عام٥٩٠هـ، فانهزم الجيش السلجوقي، وقتل طغرل، وزالت الدولة السلجوقية.

السلاجقة والحروب الصليبية:

كان من الطبيعي أن يقوم السلاجقة بالتصدي للحروب الصليبية وحماية العالم الإسلامي من أخطارها، ولكن ذلك لم يحدث بسبب تمزق دولتهم بعد ملكشاه، واشتعال الصراع فيما بينهم للسيطرة على الشام مما أدى إلى إتاحة الفرصة لنجاح الحملة الصليبية الأولى. فقد اكتسح الصليبيون قوات سلاجقة الروم في آسيا الصغرى فاتجهوا إلى نيقية للاستيلاء عليها، وكان قلج أرسلان متغيبًا عن المدينة، وفرض الصليبيون الحصار على المدينة واضطرت الحامية إلى الاستسلام بعد أن عقدت صلحًا سريًا مع البيزنطيين المشتركين مع الصليبيين في الحصار على أن تسليم المدينة مقابل ألا يتعرض أحد للسلب والنهب وذلك عام٤٩١هـ/١٠٩٧م. بعد ذلك انتصر الصليبيون على السلاجقة في موقعة دوريليوم تلك الموقعة التي كان لها آثارًا بالغة فقد خسر السلاجقة جراء تلك الهزيمة بعض ما كسبوه خلال أكثر من عشرين عامًا، ورغم الهزيمة إلا أن السلاجقة اكتسبوا احترام الصليبيين بما تحلوا به من شجاعة، وبما اتبعوه من أساليب علمية في فنون الحرب. بعد ذلك تقدم الصليبين إلى أنطاكية وحاصروها حتى استسلمت وفر أميرها السلجوقي باغي سيان، ثم ساروا إلى معرة النعمان– ينتسب إليها الشاعر أبو العلاء المعري– فحاصروها حتى استسلم أهلها فقتلوا منهم الكثير، ثم حدثت مذبحة بيت المقدس التي راح ضحيتها سبعين ألفًا من سكان المدينة.

وقد وقف السلاجقة عاجزين أمام طوفان الصليبيين، فقد كانت أوضاع دولتهم تنتقل من سيء إلى أسوأ، وكانت الخلافة العباسية جسدًا بلا روح، ولم يكن وضع الفاطميين في مصر بأفضل حالاً. وظل الأمر كذلك حتى ولى السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، عماد الدين زنكي إمارة الموصل والبلاد التابعة لها، فكان ذلك فاتحة خير للمسلمين، حيث استطاع عماد الدين مد نفوذه إلى الجزيرة والشام، وكان أعظم إنجاز حققه هو استرداد مدينة الرها من أيدي الصليبيين ٥٣٩هـ/ ١١١٤م .

عوامل ومسببات انهيار الدولة السلجوقية

تضافرت عوامل عديدة لسقوط السلطنة السلجوقية وزوالها، ومهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية، ومنها:

١- سوء سياسة السلاجقة الداخلية، وعدم إيجاد قانون لوراثة العرش يحترمه الجميع: فلم يضع السلطان طغرل (مؤسس الدولة السلجوقية) نظامًا معينًا لتنظيم مسألة ولاية العهد فى دولته ، ويكون دستورا تلتزم به الأسرة من بعده، مما كان سببا رئيسيا فى إثارة الفتن والمنازعات بين أفراد البيت السلجوقى نفسه على مدى تاريخ الأسرة بالكامل، فتصارع الإخوة والأعمام والأبناء والأحفاد، وظلت مسألة التنازع على العرش المشكلة الرئيسية التى تطل برأسها دوما عقب وفاة أى سلطان سلجوقى. والأمثلة على ذلك كثيرة: فقد بدأت تلك المشكلة تطل برأسها عقب وفاة السلطان طغرل نفسه، حيث تنازع السلطان الب ارسلان وأخيه سليمان على العرش ثم السلطان ملكشاه مع عمه قاورد، وكذلك بركيارق مع تاج الدولة تتش سنة ٤٨٦هـ وسنة ٤٨٨هـ ، ثم مع أخيه محمد بن ملكشاه .

٢- الصراع على منصب الوزارة السلجوقية: فالحياة القبلية التي ترسخت فى نفوس أفراد الأسرة السلجوقية طوال فترة حكمهم، وعدم درايتهم حتى بقدر ضئيل من التعليم، جعلهم يعتمدون على طبقة الموظفين لديهم، مما أدى لازدياد نفوذ بعض أفراد هذه الطبقة تبعا لأهمية منصبهم، وكان الوزراء هم أبرز أفراد هذه الطبقة حيث أصبح منصب الوزير يلى منصب السلطان فى الأهمية والنفوذ، فصار ذاك المنصب هدفًا تهفو إليه النفوس ينافس عليه كبار رجالات الدولة، خاصة وأن كل سلطان جديد للدولة كان يختار وزيره ممن يطمئن إلى ولائهم له، فكانت تلك المشكلة وبالا على الأسرة السلجوقية خاصة فى زمن ضعف سلاطينها، فرأينا صراع كل من نظام الملك ونظيره عميد الملك(أبى نصر الكندرى)، ثم صراع تاج الين الشيرازى مع نظام الملك، وكذلك صراع مجد الملك وزير زبيده خاتون مع أبناء نظام الملك الذين تولوا الوزارة فى عهد بركيارق .

٣- ظهور فرقة الإسماعيلية بين جنبات الدولة السلجوقية، وسعيهم الدائم إلى إثارة الفتن فى ربوع الدولة السلجوقية لإضعافها والقضاء عليها حتى يتسنى لهم اقامة دولة شيعية فى إيران .

٤- كان النظام الذى وضعه السلطان طغرل عند تأسيس دولته والذي كان يقضى بتقسيم دولته إلى ولايات شبه مستقلة، قد أفاد الدولة فى مراحل قوتها وتماسكها إلا أنه كان شرا مستطيرا فى عصور ضعفها. حيث أن تطلعات أفراد البيت السلجوقى قد جعلتهم فى بعض الأحيان يحاولون انتزاع المدن والولايات من بعضهم البعض مثلما حدث بين سليمان بن قتلمش بن إسرائيل مؤسس دولة سلاجقة الروم وبين تتش ملك دولة سلاجقة الشام سنة ٤٧٩هـ.

٥- خروج حكام بلاد ما وراء النهر على الدولة السلجوقية وإعلانهم العصيان عليها مرات عديدة دون حسم هذا الأمر من قبل السلاطين السلاجقة المتعاقبين، مما كان يستنزف قوى الدولة وجيشها وأكبر مثال على ذلك ما حدث فى عصر السلطان ملكشاه سنة ٤٦٧هـ ، سنة ٤٨١هـ .

٦- تدخل زوجات السلاطين وأمهاتهم فى مسألة ولاية العهد وسعى كل منهن إلى تعيين ابنها، دون النظر إلى مصلحة الدولة العليا، مما استنزف جهود الدولة فى حروب داخلية أضرت بالدولة وقضت على رجالها المحنكين فى بعض الأحيان أمثال نظام الملك، وأبعدت بعضهم فى أحيان أخرى، مما زاد من انقسام الدولة وتفككها مثلما حدث مع مؤيد الملك بن نظام الملك فى عهد بركيارق. هذا بالاضافة إلى إثارة الفتن من جراء تدخلاتهم، مما أدى إلى انشغال السلاطين بالقضاء على تلك الفتن وانصرافهم عن التصدى لأعدائهم الإسماعيلية والصليبيبن، ومن ثم توارت تطلعاتهم إلى توسيع رقعة بلادهم. والأمثلة فى تاريخ هذه الدولة كثيرة.

٧- استمرار سلاطين السلاجقة في تعيين أبنائهم صغار السن خلفًا لهم مما كان يؤدى إلى نشوب الحروب الداخلية بسبب اعتراض بعض أفراد الأسرة على ذلك مثلما حدث من كل من السلطان ملكشاه ومحمد بن ملكشاه وكذلك السلطان بركيارق[١] .

---

(١) https://azharfarsy.yoo٧.com/t٢٣-topic

ثانياً

مظاهر الحضارة في الدولة السلجوقية

نظام الحكم والإدارة

السلاطين :

كان نظام الحكم في الدولة السلجوقية شبيهاً لنظام الحكم في الدول العربية الإسلامية، ولكن كان للنظام القبلي سيطرة في تولي نظام الحكم، فكان من يتولى ولاية العهد يجب أن يتمتع بالقدرة العسكرية والشخصية القوية والنفوذ الواسع، حيث يقوم الزعيم أو الخليفة أو ما يسمى بالسلطان بتولي أمور القبيلة، وأول من تولى رئاسة السلاجقة هو سلجوق ابن دقاق ونسب اسم السلاجقة إليه، ويطلق على الرئيس الأعلى في الدولة السلطان، فهو صاحب السلطة في الدولة .

الوزراء :

كان منصب الوزير من أهم المناصب في الدولة بعد منصب السلطان، فهو الذي يشرف على جميع أعمال الدولة ويخضع له موظفوها مما يجعله في مركز حساس، لذلك كثرت حول هذا المنصب المنافسات والصراعات، وكان يساعد الوزير في عمله مجموعة من الموظفين هم أصحاب الدواوين، وهذه الدواوين تشبه إلى حد كبير الوزارات في عصرنا الحالي، ومن أشهرها:

– ديوان الاستيفاء، ومهمته أشبه بوزارة الخزانة اليوم .

– ديوان الرسائل، وهو الذي يشرف على جميع مكاتبات الدولة وينظم علاقة الدولة في الداخل والخارج وغالباً ما يرشح صاحب هذا الديوان لمنصب الوزارة .

– ديوان الإنشاء، وديوان الأوقاف، وهي دواوين أقل أهمية من سابقاتها، ومن المعلوم أن السلطان ألب أرسلان ألغى ديوان البريد لعدم ايمانه بعمله .

حدد سلاطين السلاجقة بعض الصفات الواجب توافرها في الوزير ومنها:
١- محبة العلم والعلماء: أن يكون محباً للعلم والعلماء وفاضلاً وكريماً، فقد عرف عن الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن إسحاق الطوسي حبه للعلم والعلماء، وهذا واضح من خلال إنشائه العديد من المدارس.
٢- سداد الرأي: ويجب أن تتوافر في الوزير صفة سداد الرأي، فالوزير عميد الملك أبو نصر محمد بن منصور الكندري، وزير السلطان طغرل بك عرف بسداد الرأي ووفور العقل .
٣- العدل: أن يكون الوزير عادلاً بعيداً عن ظلم الرعية فالوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي كان رجلاً عادلاً منصفاً، حافظاً لرعيته، فيقال عنه: إذا اجتاز بضيعة فأفسدها العسكر غرم لصاحبها ما أفسدوا ، وفي سنة ٥٣٣هـ نال الوزير كمال الدين محمد بن علي الخازن الرازي وزارة السلطان مسعود، فأخذ يعمل على نشر العدل وإزالة الظلم .
٤- الصلاح والفقه: يجب أن يكون الوزير صالحاً فقيهاً وسمع الحديث وقرأ القرآن وشجع علماء الدين، فالوزير نظام الملك أبو علي الحسن بن إسحاق الطوسي، اشتغل بالحديث والفقه، وكان يحب علماء الدين والفقهاء ويجزل صلاتهم، وينفق عليهم أموالاً، كما سمع الحديث وتفقه على مذهب الشافعية وقرأ القرآن واشتغل بالعلم .
٥- إجادة اللغتين العربية والفارسية: فيجب أن يكون الوزير أديباً بليغاً وكاتباً ناجحاً وشاعراً يجيد اللغتين العربية والفارسية بفصاحة فالوزير محمد بن منصور عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرل بك كان مترجماً بارعاً، وكاتباً جمع في العربية والفارسية بين الفصاحتين. وكان أديباً وشاعراً ناجحاً. ٦- الكفاية: لا بد أن تتوافر في الوزير صفة الكفاية، فالوزير سعد

الملك أبو المحاسن سعد بن محمد الآبيّ الذي استوزر للسلطان محمد بن ملكشاه، عرف بسداد الرأي ووفور العقل والكفاية العالية، فقد استطاع هذا الوزير جمع العساكر على الطاعة السلطانية، وبذلك استطاع أن يزيل الخلافات والفتن في دولة السلاجقة.

٧- تدبير البلاد والجيوش: ويجب أن يمتاز الوزير بحسن تدبيره للبلاد والجيوش، فقد كان الوزير نظام الملك الطوسي عارفاً بأمور البلاد، وناجحاً في تدبيرها. وكان يهتم بأمور الجيش وتفريقه وبحفظ البلاد، فلما عاد ملك شاه من محاربة عمه قاورد تطاول جند السلطان مطالبين بزيادة أرزاقهم عقب النصر، لكن الوزير نظام الملك أبا علي الطوسي استطاع أن يخمد غضب الجند ويجددوا ولاء الطاعة للسلطان .

٨- الشهامة والصبر: فهناك بعض الصفات التي لا بد أن تتوافر في الوزير السلجوقي مثل الشهامة والصبر، فقد عرف الوزير عميد الملك أبو نصر الكندري بشهامته وكرمه . أما أبو علي الحسن الطوسي فقد عرف عنه ثباته وصبره خاصة في الأزمات التي مرت بها الدولة السلجوقية والأزمات التي مر بها الوزير شخصياً، فكان شهماً، وكان الوزير نظام الملك محبوباً لدى الناس، وكان شديد الاحترام والنفوذ في مملكة السلطان ملكشاه.

والجدير بالذكر أن سلاطين السلاجقة كانوا حريصين في اختيار وزرائهم وحددوا بعض الصفات التي تتوافر في الوزير، لأن أغلب سلاطين السلاجقة كانوا جاهلين بالعلوم والمعارف واللغة والفقه وبطبيعة المؤسسات الإدارية، وكيفية إدارة أمور البلاد، فأوكلوا هذه المهام لوزرائهم لتمشية المهام السياسية والإدارية والمالية، بينما بقيت أمور الجيش والحرب بأيدي السلاطين لأنهم بطبيعتهم رجال حرب، وعلى الرغم من ذلك فإن سلاطين السلاجقة قاموا

باختيار بعض الوزراء الذين لم تتوافر فيهم صفات الوزير الجيد، وإنما كان اختيارهم بدافع حصول السلاطين على الأموال، وبحكم الظروف العصيبة والصراع الذي دار بين الأسرة السلجوقية حول كرسي السلطنة .

الأمير الحاجب:

يعد من المناصب الرئيسة لدى سلاطين السلاجقة، وهو من أعلى المناصب القيادية السلجوقية بعد السلطان والوزير، فكان في المرتبة الثالثة في مناصب الدولة، فكان الأمير الحاجب الكبير هو الذي يسمع مشافهة السلطان، ويؤديها إلى الوزير فهو الناهي في الأمر، وكان مهماته في البداية تنحصر في تنظيم البلاط، حيث يشرف على سير الأمور في بلاد السلطان، فكان بذلك حلقة الوصل بينه وبين رجالات الدولة والرعية، ثم أضيفت إليه مهمة قيادة الجيوش التي يوجهها السلطان للقضاء على أعدائه، وقد بين المؤرخون أن التدرج في الخدمة العسكرية يصل في النهاية إلى الحجابة، وهي قمة الهرم العسكري عند السلاجقة، وأسمى الألقاب التي كانت تعطى للقادة عند السلطان، ثم حمل لقب الأتابك العسكريون الموكول إليهم تربية الأمراء الفتيان من مختلف فروع العائلة السلجوقية .

الولاة:

تعددت المناصب السياسية في الدولة السلجوقية، حيث قسم السلاجقة دولتهم لأقاليم وكان على كل إقليم يعين حاكم ويتم اختياره من أفراد البيت السلجوقي حتى تبقى الدولة متماسكة وقوية وحتى لايحدث فيها انشقاق أو تمرد، وكان لكل حاكم وزيره الخاص به الذي يساعده في أمور إدارة الإقليم. وهكذا كانت دولة السلاجقة مقسمة إلى ولايات وعلى رأس كل ولاية أحد أفراد الأسرة السلجوقية، وكان منصب حكام الولايات وراثيا من الأباء إلى

الأبناء وكان حاكم كل ولاية أو اقليم يستعين بمجموعة من الموظفين، وكان له حاجب وجيش خاص به ولكنه تابع مع قواته للسلطان مباشرة .

سپهسالار:

منصب عسكري معناه قائد الجيش وهو الذي يتقدم الجيش في القتال حيث يتم تعيينه من قبل السلطان بناء على كفاءته واخلاصه وقدراته .

المساعدين الإداريين في الدولة :

أ- الكتبة:

كان الكتبة يعملون في الدواوين ويتولون تسجيل الخراج في الولايات والأرزاق والرواتب سواء كانت مدنية أم عسكرية، وكان الكتبة يسجلون احتياجات الجند ورواتبهم في السجلات الموجودة ويسمى رئيس هذا الديوان العارض ، حيث يخبر السلطان بأحوال هذا الديوان، ويسمى هذا الديوان أحيانا ديوان الإقطاع، وكان الكتبة في هذا الديوان يرصدون في الجريدة السوداء سنوياً أسماء الرجال من الجند وأنسابهم ومبالغ أرزاقهم وسائر أحوالهم وهي الأصل الذي يرجع إليه في ديوان الجيش في كل شيء.

ب- العميد

استخدم السلاجقة وظيفة العميد الذي يعاون الشحنة في إدارة الولاية وتوجيه القوات العسكرية في حالة الاضطرابات، وكانت سلطات العميد أوسع من سلطات الشحنة فهو يشرف على العراق بأكمله، بينما يشرف الشحنة على بغداد فقط ، ويذكر نظام الملك أن من المناصب عميد بغداد وعميد خراسان وعميد خوارزم في حصره للمناصب المهمة التي تضاف ألقابها إلى الملك لتتضح درجة العظيم فيهم ومرتبته عما دونه، وهو ما يثبت لنا وجود هذا المنصب وأهمية صاحبه في الدولة السلجوقية . وأما عن مهام ومسؤوليات

هذا المنصب فهي ضمان بغداد بمبلغ معين والنظر في أعمالها وعمارتها، والمحافظة على الأمن والقضاء على الفتن في مركز الخلافة والنظر في المظالم، والاهتمام بأمر الحج وتعيين الخفراء للحجيج وترتيب إقامة السلطان في بغداد، وقد تقلص نفوذ العميد بمرور الزمن فأنيطت أكثر مهماته إلى الشحنة تخفيفاً عنه .

ج- الشحنة :

يشبه منصب المحافظ في عصرنا الحاضر استخدمه السلاجقة فقد اعتادوا منذ البداية على تعيين الشحنة على القبائل التركمانية ومنحه صلاحيات خاصة، وكان عمل هذا المنصب يتلخص في قسم القضايا الخفيفة في البلد الذي يتولاه وهو مشابه لعمل العميد، فيما عدا ضمان العميد لبغداد بمبلغ من المال، ولذا لم يكن لعمله حدود واضحة، ولكن بعد أن تقلد نظام الملك الوزارة أصبح الشحنة بمثابة الوالي أو النائب عن السلطان في الولاية، فهو المسئول عن إدارة المصالح السلجوقية وإقرار الأمن والنظام، فهو قائد الحامية العسكرية في المدينة وله صلاحيات أمنية وإدارية واسعة، وهي أشبه ما تكون بوظيفة الحاكم العسكري في عصرنا.

د- الأتابك :

من الوظائف السلجوقية المهمة ويذكر ابن الأثير والسيوطي أن معنى أتابك هو الأمير الوالد ، بينما يذكر ابن خلكان أنه الذي كان يربي أولاد الملوك فالأتا بالتركية هو الأب وبك هو الأمير، وعبر القلقشندي عن هذا اللفظ بقوله وأصله أطابك ومعناه الوالد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الملك حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٢م .

- **الوظائف الأخرى :**

أ- القضاة :

كان القضاة هم الذين يرعون الشئون الشرعية في بلاد السلاجقة، وكانوا على قسمين أحدهما للعسكر والآخر لعامة الناس، فكان قاضي الجيش ينظر في القضايا الخاصة بالجيش، ويذكر نظام الملك أن من شروط القاضي أن يكون عالماً أميناً زاهدا، ويرى وجوب عزل كل من لا يتصف بهذه الصفات وأن يعطي القاضي راتباً شهرياً يكفيه حتى لا تضطره الحاجة إلى الخيانة لما فيها من خطر كبير؛ لأن دماء المسلمين وأموالهم بيد القضاة، وأن من واجب السلطان مساعدة القاضي في أداء مهام منصبه بإجبار من يرفض الحضور إلى مجلس القضاء أن يحضر كي يسود العدل وينصف المظلوم، لأن القضاة هم نواب السلطان .

ب- الأطباء :

اهتم العرب والمسلمون بالطب منذ زمن بعيد ومنذ تكوين دولتهم، حتى صار المسلمون في مقدمة الشعوب التي اهتمت بالطب وإنشاء المستشفيات التي كان بعضها ثابتاً وبعضها الآخر ميدانياً متنقلًا مع حركة الجيوش أو عند ظهور الأوبئة والأمراض، أو أن بعضها كان عسكرياً، إذ أن أغلب هذه المستشفيات أشبه ما تكون بمدارس لتعلم الطب يتلقى فيها الطلاب من الأطباء العلوم الطبية نظرياً وعملياً. ومن بين الأطباء الذين ظهروا آنذاك، المختار بن الحسن بن عبدون الطبيب البغدادي المعروف بابن بطلان.

ج- المهندسون :

يطلق عليهم الفعلة ومهمتهم تمهيد الطرق، وإزالة العوائق أمام الجيش، وسكان البلاد، وتنظيم عبور الجيش للمضائق في المناطق الجبلية أو

النهرية والمائية الأخرى، حيث يحملون معهم العتاد اللازم لمساعدتهم في عملهم، كما قام المهندسون بصناعة الهروات والمجانيق،كما صنع المهندسون الدبابة الخشبية، حيث كانوا يحتمون فيها ثم يقتربوا من الأسوار لأجل هدمها، كما يمثل صانعوا الأسلحة بأنواعها وبناء الجسور جزء من وحدات الجيش السلجوقي، ويدل استخدام السلاجقة للجسور لعبور الأنهار على وجود المهندسين المهرة في الجيش السلجوقي الذين يقومون ببناء مثل هذه الجسور، التي يستطيع الجيش العبور عليها وكان المهندسون يصنعون السفن في عهد السلطان ألب أرسلان لحصار مدينة نخجوان، وصنعت السفن والجسور بأمر من الوزير نظام الملك لفتح مدينة مريم نشين، كما قاموا ببناء المساجد والمدارس والأبراج الحربية والأسواق المسقوفة.

د- المعلمون :

المعلمون منهم من علم في الكتاتيب، ومنهم من علم في حلقات المساجد، أو في المدارس النظامية، فالمدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك وزير السلطان كانت أكثر نظاماً في اختيار الأساتذة والمعلمين، وفي أسلوب التدريس، والدراسة، وفي انتساب الطالب، وأنهم كانوا يخضعون لاختبار قبل دخولهم فيها بالإضافة إلى حداثة مكتباتها العلمية التي تساعد الطلبة على الدراسة الجيدة وكتابة البحث، أما بالنسبة لنظام التعليم في المدارس الحكومية فكان درباً من التعصب للمذهب الشافعي واشترط أن يتوفر في هذه المدارس واعظاً، ومدرساً ومتولياً لدار الكتب ومقرئ للقرآن ونحوياً لتدريس اللغة العربية، وقد خصصت لهذه المدارس موقوفات كثيرة

من الأسواق وحمامات ودكاكين وجناح لتأمين أجور العمال والأساتذة ونفقات الطلبة، ومن أشهر هذه المدارس المدرسة النظامية في ببغداد[1].

الجيش والنظام العسكري :

كانت القوات العسكريّة لجيوش السلاجقة تتبع نظاماً عسكرياً منظّماً، وقد ساهم في العديد من انتصاراتها، وتمّ تقسيم هذا الجيش إلى مجموعة من الرتب العسكرية التي تشمل القادة، والأفراد الذين يقومون بالنيابة عنهم، والعسكريين الذين يتدرجون من المشاة إلى الخيالة، وكان يتمّ تنظيم أفراد الجيش من حيث أسمائهم، ورواتبهم، وغيرها من المعلومات الأخرى المتعلّقة بهم. تألّف جيش السلاجقة من مجموعةٍ من الأعراق، وساهم ذلك في تنوّعِ المناهج والخطط العسكريّة أثناء الحروب، فقد شمل الجيش جنودا من العرب، والكرد، والفرس، والترك، والأرمن، والذين كان يتم تدريبهم تدريباً عسكريّاً مناسباً لطبيعة الحروب التي سيشاركون بها، وقد استخدم جيش السلاجقة مجموعة من الأسلحة في معاركه، منها السيوف، والأقواس، والرماح، واستخدموا أسلوب الحصار الحربي للمناطق التي أرادوا غزوها.

اعتمدت السلطنة السلجوقية في بداية نشأتها على أبناء القبائل الغزية التركمانية المنضوية تحت زعامة الأسرة السلجوقية، ومنذ عهد السلطان ملكشاه- وبتأثير الوزير نظام الملك- بدأت ملامح التغيير في بنية الجيش السلجوقي، بالاتجاه إلى الاعتماد على المماليك كأساس للمؤسسة العسكرية، بدلاً من الاعتماد على القبائل التركمانية، ودخلت الجيش عناصر جديدة مؤلفة من الخوارزميين والديلم والأعاجم (الفرس) والأكراد والكرج والأتراك والشبانكاريين، إلى جانب الأتراك الغز، وأبناء القبائل العربية من أهالي بلاد

---

(١) حسن محمد حسن القانوع: عوامل النصر والتمكين للدولة السلجوقية في عهد ألب أرسلان، ص٦٩-٧٠

الشام الذين شاركوا في الحملات السلجوقية التي تصدت للغزو الفرنجي، وخصص للجيش –بما فيه المرتزقة– إقطاعات عسكرية تمنح لأمرائهم، ويخصص ريعها للإنفاق عليهم، فقد أعاد نظام الملك النظر في النظام المالي للجيش، فاستبدل نظام العطاء (الرواتب) الذي عمل به في الدولة الإسلامية منذ عهد عمر بن الخطاب، بنظام الإقطاع العسكري، حيث أقطع أمراء الجيش أراضي الخراج ليستغلوها، ويقدم كل واحد منهم عددا من الفرسان يتناسب مع حجم إقطاعه، لخدمة السلطان عند الحاجة.

وبلغ عدد أفراد الجيش السلجوقي المثبت في الجرائد الديوانية (السجلات) في عهد السلطان ملكشاه قرابة ٤٦ ألف فارس خصصت لهم الإقطاعات في سائر أنحاء السلطنة السلجوقية، وهي إقطاعات وظيفية من الأرض الخراجية يخصص ريعها للإنفاق على الجيش. وترسخ نظام الإقطاع العسكري، وأصبح بمرور الزمن ركناً أساسياً من أركان الحياة السياسية والاقتصادية في السلطنة السلجوقية. وإلى جانب الجيش النظامي هناك جيش السلطان الخاص أو حرس القصر، الذي يرابط دائماً في البلاط بجانب السلطان ويتألف– برأي نظام الملك –من أربعة آلاف رجل يتمركزون بصورة دائمة في القصر من كل جنس، تسجل أسماؤهم في الديوان. ألف منهم لحراسة السلطان الخاصة، وثلاثة آلاف في خدمة الأمراء والقادة[١] .

(١) د.عليان عبد الفتاح الجالودي: قواعد الحكم في سلطنة آل سلجوق من خلال كتاب (سياستنامه) ، ص٢٢٦-٢٢٧

الحياة الاجتماعية في العصر السلجوقي:

تعد حضارة دولة السلاجقة من الحضارات المتنوّعة ثقافياً؛ بسبب تنوّع أصول مواطنيها الذين جاؤا من مختلف أنحاء العالم، وكانوا يعيشون ضمن مدن صغيرة، والتي كانت تضم أسواقاً، وبيوتاً، ومعالم سكانية أخرى وكان أهل هذه المدن يحرصون على تقديم كافة الخدمات للمسافرين الذين يمرون بأراضي دولة السلاجقة، وتظهر المعالم الثقافيّة الخاصة بهم فيما تبقى من آثارهم بمنطقة الأناضول في تركيا، والتي ما زالت تحتوي على قصور وبقايا معالم أثرية تعود لعهد دولة السلاجقة .

امتاز السلاجقة الأتراك في معاملاتهم بالتدين، وكانوا مظهراً للإنسان الفطري الذي هذبه الإسلام، وإذا ما استثنينا صوراً قليلة تحتمها الطبيعة البشرية التي لا تخلو من بعض القصور، فإن هؤلاء السادة كانوا نموذجاً طيباً حتى في معاملتهم للخليفة العباسي الذي حفظوا له عرشه، فلم يكونوا كالذين انتصر بهم المعتصم، ولم يكونوا كالبويهيين حينما سيطروا على الخلافة وأذلوا الخليفة، لقد احترموا الخلفاء وأجلّوهم، وكان لهم فضل كبير في رفع راية الإسلام، وفي امتداد عمر الخلافة العباسية أكثر من قرنين من الزمان، كما بدأوا في مرحلة جديدة من التوسع الإسلامي في اتجاه آسيا الصغرى، ويقال إن هذا التوسع كان أحد أسباب قيام الحروب الصليبية.

كما أن نواحي النشاط الاقتصادي من زراعة وصناعة ورعي وتجارة وتنظيم الطرق وتأمين المسالك، وتوفير الحياة الكريمة. كل هذا اهتم به السلاجقة أيما اهتمام، بيد أن السلاجقة وقعوا، وهم يسيرون في الطريق، في أخطاء ظنوها خيراً، فانقلبت على دولتهم شراً.

ومن الظواهر المتعلقة بسياسة هؤلاء القوم الاجتماعية والفكرية، إلغاء أشهر ملوكهم ألب أرسلان لنظام التجسس ولجوء أحد وزرائهم نظام الملك إلى نظام الإقطاع بإعطاء الشخصيات السلجوقية والشخصيات الأخرى الكبرى اقطاعات أو أتابكيات لحسابها الخاص، ومن الظواهر كذلك الحملات الجهادية شبه المنتظمة التي كانت خير علاج للفوضى الداخلية .

لجأ السلاجقة إلى نظام الإقطاعات، وأسندوا معظمها إلى شخصيات سلجوقية، وقد حسبوا أن هذا من شأنه أن يشغل السلاجقة عن التفكير في الحكم، وأن يرضوا بالبعد عن السلطة، لكن الإقطاعيين السلاجقة سرعان ما حاول كل منهم أن يكون لنفسه من إقطاعاته إمارات صغيرة، حاولت كل واحدة منها الانفصال عن السلطة، وهو عكس ما كان يهدف إليه السلاجقة الحكام . وقد أدى هذا إلى تفكيك وحدة السلاجقة وإلى انهاك قوى السلطة السياسية الحاكمة، وإلى توزيع النفوذ الحقيقي في الدولة بين عديد من الأمراء، كما أن هذا الخطأ أدى إلى عدول السلاجقة عن طريق اختيار زعمائهم القديمة التي كانت تعتمد على الكفاية والمقدرة، فأصبحت الزعامة تقليدية دورية، خوفاً من كثرة تنازع أمراء الإقطاعات عليها.

كان لبداوة السلاجقة أثر في الناحية الاجتماعية، حيث كان لطابع التنقل والترحال أثر على حياتهم لاختيار المكان المناسب للعيش، وبعد الاستقرار تغير أسلوب الحياة لديهم، فتم بناء القصور والدور، وتعددت وتنوعت طبقات المجمع، منها: طبقة السلاطين والأمراء، وهي أعلى طبقة في الدولة السلجوقية. وطبقة الموظفين، وتعد من أهم طبقات المجتمع السلجوقي وتضم الوزراء والحجاب والكتاب. وطبقة أبناء القبائل السلجوقية، ويعود السبب في

ظهورها لوفود عدد من القبائل السلجوقية لإيران. وطبقة الرقيق، وتعد منطقة سمرقند من أكبر أسواق الرقيق. طبقة أهل الذمة، وتضم النصارى واليهود.

العلوم والمعارف:

ازدهرت في عهد السلاجقة جوانب الحضارة المختلفة، فعلى الرغم من أنهم دولة جهاد إلا أن العلوم والآداب فازت بنصيب وافر من اهتمامهم. اشتهر العصر السلجوقي بكثرة عدد شعرائه وفلاسفته وعلمائه ومن أشهرهم العالم أبو حامد الغزالي، والشاعر وعالم الرياضيات عمر الخيام، والشاعر فريد الدين العطار ونظامي الگنجوي، كما يعد جلال الدين الرومي من الشخصيات المعروفة في ذلك الوقت، وقد كان صوفياً مسلماً وشاعراً، وأكثر ما يميزه هو قيادته الروحية وله العديد من الأتباع وقد عُرف باسم الرومي. وتميز الفن والثقافة في العصر السلجوقي بالمزيج الآسيوي والشرق الأوسط بالإضافة إلى الأناضول، وقد اهتم السلاجقة بالعمارة وخاصة بناء المساجد التي أدخلت عليها فكرة الساحة المفتوحة في وسط البناء تحيط بها عقود مسقوفة وإيوان على كل جانب وأشهرها مسجد أصفهان ومسجد "سنك بست" بالقرب من مدينة مشهد ومسجد حيدرية في مدينة قزوين ومسجد "كلبايكان"، ومسجد "بارسيان"، فضلاً عن المدارس والجواسق والبساتين وأبراج المقابر، وازدهرت صناعة القيشاني والسجاد والمنسوجات الصوفية الحريرية.

اللغة:

تعددت اللغات في المنطقة إلى: اللغة العربية التي كانت لغة العلماء، واللغة الفارسية وهي اللغة الرسمية في المنطقة، واللغة التركية التي كانت لغة الشارع .

وبعد صفحة تاريخية رائعة من صفحات الحضارة الإسلامية امتدت بين سنوات ٤٣٣-٦١٩ أفل نجم السلاجقة وغربت شمسهم ، بعد أن حكم منهم واحد وثلاثون زعيماً سلجوقياً، وبعد أن قدموا للخلافة الإسلامية الكبرى أجل الخدمات، وحموها من كثير من عثرات السقوط، وقدموا لحضارة الإسلام يداً من أروع ما قدمت الدول الإسلامية من أياد بيضاء.

الفصل الثاني

الإسماعيلية والقراخانيون

أولًا: الإسماعيلية

الإسماعيلية فرقة باطنية، كان أتباعها ينادون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق؛ لذا سموا بذلك، وتميزوا بالباطنية: لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون، فظاهرها التشيع لآل البيت، وحقيقتها هدم عقائد الإسلام، تشعبت فرقها وامتدت عبر الزمان حتى وقتنا الحاضر، وحقيقتها تخالف العقائد الإسلامية الصحيحة، وقد مالت إلى الغلوِ الشديد لدرجة أن الشيعة الاثني عشرية يكفِّرون أعضاءها.

قيام دولة الإسماعيلية النزارية في إيران :

كان من أبرز التحديات التي واجهت دولة السلاجقة، دعوة الإسماعيلية النزارية، أو ما يعرف بالباطنية، أو الحشاشين، والتي نشأت بصورة خاصة في المشرق الإسلامي ورئيسها الحسن بن الصباح، وتعود جذورها إلى عام ٤٧٨هـ، حيث توفي الخليفة الفاطمي المستنصر دون أن يبايع لابنه الأكبر "نزار"، رغم أنه أبدى رغبته في ذلك، وبويع بعده ابنه الأصغر المستعلي بالله، فانشقت بذلك الدعوة الإسماعيلية لشقين، النزارية والمستعلية، وكان الحسن بن الصباح الحميري قد ولد بالري في بلاد فارس عام٤٣٠هـ، وتأثر في شبابه بالدعوة الإسماعيلية الفاطمية، وزار مصر، والتقى المستنصر. وكان الحسن الصباح قد اتصل ببلاط ملكشاه قبل ذهابه لمصر، ثم هرب إلى الري بسبب انكشاف نشاطه مع الباطنية والفاطميين، وخرج إلى مصر ليحضر دروس "عبد الملك بن عطاش" في الباطنية، ويقابل إمامهم المستنصر، ويعلن الولاء له، وأثناء وجوده في مصر لأكثر من عام أمدّه

المستنصر بالأموال، وأمره بدعوة الناس إلى إمامته في بلاد العجم، وعزم على نشر دعوة المستنصر في فارس وخراسان، وتكوين مجتمع إسماعيلي صرف . وحين عاد إلى بلاد فارس بدأ بنشر دعوته إلى نزار رافضاً البيعة للمستعلي معتبراً نفسه نائب الإمام مخططاً لإنشاء دولة إسماعيلية جديدة في المشرق الإسلامي[١].

بعد أن رجع الحسن الصباح إلى فارس، وبلغ أصفهان سنة ٤٧٣هـ، باشر دعوته السرية، لكن نظام الملك ضيّق عليه الخناق، فرحل إلى قزوين، واستولى على قلعة "ألموت" الحصينة فوق جبل ألموت العالي بنواحي قزوين عام ٤٨٢هـ، وجعلها مقرًا له ولجماعته، فتوسعوا وأكثروا الفساد في البلاد. وعمل الحسن الصباح على تحصين نفسه وأتباعه في قلاع متناثرة في أقاليم وعرة مثل أقاليم بحر قزوين وثبت مركزه في قلعة ألموت، وكان صاحب غدر وخيانة، فقد بث الرعب في قلوب الناس بالاغتيالات الغادرة. وتشير الروايات التاريخية إلى أن أهم ضحاياه كان الوزير نظام الملك الذي شدد على الدعوة النزارية وحاربها، مع أن عددًا من المؤرخين من أمثال ابن الجوزي والذهبي، قد أوردوا آراء أخرى تجعل عملية اغتيال الوزير مدبرة من السلطانة "تركان خاتون" زوجة ملكشاه، حيث نصبت مكانه وزيرها "تاج الملك" لتنفرد بالحكم لصالح ابنها الصغير. وسجل التاريخ غدر الحشاشين الباطنية، وقتلهم للخليفتين العباسيين المسترشد والراشد، وهددوا ملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الأيوبي. لقد كان عمل الحسن الصباح على هدم العقيدة من الداخل، وكل صفات الألوهية والتوحيد، ورفض السنة وتعاليم

---

(١) انظر: علي محمد محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، ص ٧٧

النبي(ص) ونفي الفرائض بالاعتماد في ذلك على نظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورس بتأثر واضح بالفلسفة اليونانية، فيخرج من يتبعهم من دين الله بالجملة، وقد شبهها بعض الباحثين بالماسونية في عصرنا الحاضر. ورغم فساد دعوتهم إلا أن شدة تنظيم الساعين لها سمحت بنشر الحركة الإسماعيلية بشكل لم يسبق له مثيل وبقاءها إلى اليوم يعود لتلك الجهود في الباطل. سيطر الباطنيون على الناس بالشعوذة والمخاريق والتظاهر بالولاية والتأله. تراوحت سياسة ملكشاه مع الصباح بين المهادنة والمقاومة، فلما استولى الصباح على قلعة ألموت، وأرسل أسراب فدائييه يفتكون بالآمنين بالاغتيالات، أرسل له السلطان السلجوقي الإمام أبا يوسف يعقوب بن سليمان، وكان فقيهًا عالمًا بالأصول على مذهب أهل السنة لمناظرتهم، لكن دون جدوى، فتحول ملكشاه إلى السلاح، فأرسل الأمير "أرسلان طاش" سنة ٤٨٥هـ فحاصر القلعة، ولكنه هزم، وفشلت محاولته في حصار قلعة أخرى لهم وهي "ديرة"، واستمر دجلهم في الانتشار أوساط الجهلة الأغرار، وأرسل ملكشاه للصباح رسالة تهديد، فكان رده أمام الرسول أن طلب من أحد الشباب قتل نفسه، فأخرج سكينًا وقتل نفسه وسقط ميتًا، وقال لآخر ألق نفسك من هذا الموضع فرمى نفسه من رأس القلعة إلى الأرض، فتقطع، وقال للرسول هذا الجواب، وفي رواية قال: "أخبر سيدك أن عندي من هؤلاء عشرين ألفًا هذا حد طاعتهم لي"، فعاد الرسول إلى السلطان فأخبره بما رأى، فعجب من ذلك، وترك كلامهم .

ويلاحظ أن ملكشاه لم يبذل في مقاومتهم جهدًا يتناسب مع قوته ومكانته فلم يتوجه بنفسه مثلًا لحربهم كما فعل في مناسبات كثيرة عندما

كان يتهدد دولته خطر من الأخطار، كما أنه تجاهل نصائح وزيره نظام الملك عندما حذره من أخطارهم، ولم يدم السلطان في الحياة كثيرًا بعد استيلاء الحسن الصباح على القلعة، فبقي شر الأخير يؤرق حياة من خلفه من سلاطين.

تمكن الحسن الصباح من السيطرة على القلاع المجاورة لقلعة "ألموت"، حتى ضم لحكمه المنطقة الواقعة جنوبي بحر قزوين كلها، قلاعها وأرجائها، والتي بلغت نحو ٦٠ قلعة، وسط أراضي صالحة للزراعة، ومصادر للمياه جميعها بالقرب من نهر شاهرود وفروعه، وكانت بمثابة أول دولة للإسماعيلية في المناطق التي سيطر عليها الباطنية، إضافة إلى ولاية قهستان، المجاورة لخراسان منذ سنة ٤٨٤هـ والتي رغم بعدها النسبي عن مركزهم كانت تابعة للدولة، وظل حكامها المحليون يتبعون ملوك الإسماعيلية في "ألموت" حتى قضى عليهم المغول. ويعتبر أهل السنة الإسماعيلية بجميع فروعها من فاطمية أو قرامطة أو نزارية "حشاشين"، وغيرها، من فرق الغلاة الباطنية؛ لأنهم تطرفوا في العقيدة، وانحرفوا عن صحيح الإسلام، وللرد على مزاعم الإسماعيلية الباطنية، ألف العلماء الكتب لدحض ادعاءاتهم مثل أبو حامد الغزالي وكتابه "الموسوم بفضائح الباطنية"، ثم إن السلطنة السلجوقية حاربت البدع الإسماعيلية، وتميز من السلاجقة وزيرهم نظام الملك الذي أدرك نشاط الدعوة الإسماعيلية في كسب أعداد كبيرة من عامة الناس، فبدأ بتأسيس عدد من دور الثقافة والتعليم عرفت بالمدارس النظامية؛ لنشر الوعي والثقافة الإسلامية الصحيحة لتحصين الفرد

ضد دعوات الإسماعيلية، وقد أنشئت في بغداد والموصل وأصفهان ونيسابور ومرو وبلخ وهراة وغيرها من المدن(١) .

أبرز زعماء طائفة الإسماعيلية :

* **الحسن بن الصباح:** ولد فى الري عام ٤٣٠هـ ونشأ نشأة شيعية ثم اتخذ الطريقة الإسماعيلية الفاطمية وعمره ١٧ سنة، وفي عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م ذهب إلى إمامه المستنصر بالله حاجًّا، وعاد بعد ذلك لينشر الدعوة في فارس، وقد احتل عدداً من القلاع أهمها قلعة ألموت ٤٨٣هـ التي اتخذها عاصمة لدولته. في عهده مات الإمام المستنصر بالله (٤٨٧هـ/١٠٩٤م)، وقام الوزير بدر الجمالي بقتل ولي العهد والابن الأكبر "نزار" لينقل الإمامة إلى الابن الأصغر "المستعلي" الذي كان في الوقت نفسه ابن أخت الوزير. وبذلك انشقت الفاطمية إلى نزارية مشرقية، ومستعلية مغربية. أخذ الحسن بن الصباح يدعو إلى إمامة نزار، مدعيًّا أن الإمامة قد انتقلت إلى حفيد لنزار أحضر سرًّا إلى ألموت وأنه طفل جرى تهريبه من مصر إلى فارس، أو أن محظية لنزار كانت حاملاً منه أُخذت إلى ألموت حيث وضعت حملها. وبقي أمر هذا الإمام الجديد طي الكتمان. توفي الحسن بن الصباح عام٥١٨هـ /١١٢٤م من غير سليل لأنه كان قد أقدم على قتل ولديه أثناء حياته.

* **كيا بزرگ آميد:** حكم من ٥١٨هـ/١١٢٤م إلى ٥٣٢هـ/١١٣٨م: كان أول أمره قائدًا لقلعة الأماسار عشرين عامًا، وخلال فترة حكمه دخل في عدة معارك مع جيرانه السلاجقة، كما كان أكثر تسامحًا وسياسة من الحسن

---

(١) انظر: د. فؤاد عبد المعطي الصياد: المغول في التاريخ، الجزء الأول، ص٧٤-٨٣

الصباح.

* **محمد بزرگ آميد:** حكم من سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م إلى سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢ م: اهتم بالدعوة للإمام، كما فرض الاحترام الخارجي للفرائض الإسلامية ، فقد أقدم على قتل كثير من أتباعه ممن اعتقدوا بإمامة ابنه وطرد وعذب آخرين.

* **الحسن الثاني بن محمد:** حكم من سنة ٥٥٧هـ/١١٦٢م إلى سنة ٥٦١هـ /١١٦٦م: أعلن في شهر رمضان ٥٥٩هـ قيام القيامة، وأنهى الشريعة، وأسقط التكاليف وأباح الإفطار، ثم أقدم بعد ذلك على خطوة أخطر وذلك بأن ادعى بأنه من الناحية الظاهرية حفيد لكيابزرك ولكنه في الحقيقة إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار.

* **محمد الثاني بن الحسن الثاني:** من ٥٦١هـ/ ١١٦٦م إلى ٦٠٧هـ/١٢١٠ م: طور نظرية القيامة ورسخها، وقد ساعده على ذلك انحلال هيمنة السلاجقة في عهده وضعفهم، وظهور التركمان وبداية التوسع التركي.

* **جلال الدين الحسن الثالث بن محمد الثاني:** من ٦٠٧هـ/١٢١٠م إلى ٦١٨هـ/١٢٢١م: رفض عقائد آبائه في القيامة، ولعنهم وكفَّرهم، وأحرق كتبهم وجاهر بإسلامه، وقام بوصل حباله مع العالم الإسلامي فقد أرسل إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله وإلى السلطان السلجوقي خوارزم شاه والملوك والأمراء يؤكد لهم صدق دعوته إلى التعاليم الإسلامية، ففرحت البلاد الإسلامية بذلك وصار أتباعه يعرفون بالمسلمين الجدد.

* **محمد الثالث بن الحسن الثالث:** (وبعض الكتب تسميه علاء الدين محمود): كان حكمه من سنة ١١٢١م إلى سنة ١٢٢٥م: خلف أباه وعمره ٩ سنوات، وظل وزير أبيه حاكمًا على ألموت، وقد عاد الناس في عهده إلى المحرمات، وارتكاب الخطايا والإلحاد. حكم الصبي خمس أو ست سنوات ثم أصيب بلوثة عقلية، فانتشرت السرقة واللصوصية وقطع الطرق والاعتداءات .

* **ركن الدين خورشاه:** ١٢٥٥م/ ١٢٥٨م: قاد هولاكو حملة سنة ١٢٥٦م وكان هدفه قلاع الإسماعيلية، وما زال يتقدم حتى استسلم له ركن الدين وسلمه قلعة ألموت وأربعين قلعة وحصناً كلها سويت بالأرض، فاستقبله هولاكو بترحاب وزوجه فتاة مغولية، وفي عام ١٢٥٨م انتهى منه بقتله غيلة، وبذلك انتهت دولة الحشاشين سياسيًّا في فارس.

* **شمس الدين محمد بن ركن الدين:** تقول روايات الإسماعيلية بأن ركن الدين قد أخفى ابنه شمس الدين محمد الذي هرب من بطش هولاكو متنكرًا إلى جهة ما بجنوب القوقاز، ثم استقرت بقرية أنجودا على الطريق بين أصفهان وهمدان. وظل بها حتى مات في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وكان من عقبه سلسلة من الأئمة في القرن التاسع عشر، ومنهم ظهرت أسرة أغاخان.

انقسم الحشاشون بعد شمس الدين إلى قسمين: . بعضهم نادى بإمامة محمد شاه واعترفوا به وبالأئمة من نسله حتى انقطعت سلسلتهم في منتصف القرن العاشر الهجري وكان آخرهم الإمام ظاهر شاه الثالث المعروف

(بالدكنى) والذي هاجر إلى الهند وتوفي هناك حوالي سنة ٩٥٠هـ، وانقطع هذا الفرع على الرغم من وجود أتباع له إلى الآن في مصياف والقدموس بسوريا. وأصحاب الفرع الثاني اعتقدوا بإمامة قاسم شاه، وهؤلاء يشكلون العدد الأكبر من هذه الطائفة، وقد هاجروا إلى أعالي نهر جيحون(١).

---

(١) https://dorar.net/firq/٣١٩٩/

ثانياً: القراخانيون (٣٤٩هـ -٥٣٦هـ)

القراخانيون هم قبائل تركية، استقرت في تركستان، ونجحت في فرض سيطرتها على معظم مدنها، وعلى بلاد ما وراء النهر، وأسست لها إمارة عاصرت الإمارات السامانية والغزنوية والخوارزمية، وتعد الإمارة القراخانية من أولى الإمارات التركية الإسلامية التي ظهرت في تركستان، وحكمت فى تركستان الشرقية والغربية (بلاد ما وراء النهر)، وامتد حكمها زهاء ٢٣٠ سنة؛ أي ما بين سنوات ٣٨٠-٦٠٩هـ(٩٩٠-١٢١٢م)، بينما ذكر زامباور أن حكم إمارتهم امتد أكثر من ٢٣٠ سنة؛ أي ما بين السنوات ٣١٥-٦٠٩هـ (٩٢٧-١٢١٢م)، وذلك نسبة إلى حكم أول أمرائهم، وأول من اعتنق الدين الإسلامي منهم، وهو الأمير ساتوك أو (سبق) بغراخان عبد الكريم المتوفى سنة ٣٤٤هـ/٩٥٥م، والذي كان يسمى أيضًا "قراخان". وتعد الدولة القراخانية أكبر دولة تركية ظهرت فى تركستان بعد إمبراطورية "كوك ترك"[1].

يطلق على الدولة القراخانية أسماء متعددة : كدولة خانات تركستان، الدولة الخاقانية، الإليك خانية، آل أفراسياب.

اتخذ القراخانيون من مدينة كاشغر عاصمة لهم، واتخذوا في مراحل تاريخية أخرى من مدينة أوزكند الواقعة إلى الشرق من فرغانة مركزا لهم ،

---

(1) حكمت سلالة الكوك تورك اكبر السلالات الحاكمة في الدولة التركية الكبرى وأعظمها مدة مائة وثلاثة وتسعين عاما من عام ٥٥٢ – ٧٤٥ وبذلك فتكون مدة حكمهم اطول من حكم التابغاج و الاوار، وقد اتخذ هؤلاء الذين أضفوا على التاريخ التركي اهمية خاصة مدينة أوتوكن عاصمة لهم. وقد أطلقوا مثل الاوار لفظة قاغان على أباطرتهم و لفظة تيكين على امرائهم. مؤسسا هذه السلالة اللذان اطاحا بحكم الاوار واستلما مقاليد الأمور في الدولة التركية هما شقيقان عملا يدا واحدة ومن اجل تحقيق غاية واحدة و يدعى أهما بومين و الاخر ايسته مي قاغان. ففي عام ٥٥٢ قام الإمبراطور بومين قاغان (Bumın Kağan) بوضع حد لحكم الأوار مما فتح المجال أمام الگوك تورك لاستلام زمام الدولة فآلت السلطة إليهم.
https://golanturkmanlare.ahlamountada.com/t٥٨٠-topic

وكانوا يعدونها مكانا آمناً لهم، وأقل خطرا من المدن الداخلية الأخرى، ونجح القراخانيون في فرض سيطرتهم على مدن عدة؛ منها بلاساغون وختن، وطراز، هذا بالإضافة إلى ما يجاورها من البلاد. وحكمت هذه الأسرة شمال جبال تيان شان وجنوبها في الصين من القرن٤هـ/١٠م إلى القرن ٧هـ/ ١٣م، ومن الصين، انطلق القراخانيون نحو بلاد ما رواء النهر، وهذا يعني أن جزء من بلاد الصين كانت خاضعة – أيضا– للقراخانيين.

كانت الإمارة القراخانية تنعم بالإستقلال في حكم الأقاليم التابعة لسلطتها، إلا أنها وعبر المراحل التاريخية المتعاقبة خضعت لسيادة السلاجقة تارة، وللخطا أو القراخطائيين تارة، وللخوارزميين تارة أخرى.

كان أمراء القراخانيين يلقبون بعدة ألقاب، فاللقب الأول هو" قراخان "، وهذا اللقب يتكون من مقطعين، الأول " قرا "؛ وهي كلمة تركية، تعني اللون الأسود، أما المقطع الثاني "خان"، ويعني صاحب السلطة الرئيسة، ولهذا؛ يطلق على القراخانيين الأتراك السود، ثم تطور هذا اللقب فيما بعد، وأصبحوا يلقبون بلقب خاقان، وهذا اللقب يعني "أعظم الملوك "، أو" الملك العظيم"، أو " ملك الملوك"، أما اللقب الثاني؛ هو " ايلك خان "، أو" ايليك خان "، وهذا اللقب هو لقب أويغوري معناه الملك، أو الأمير أو الحاكم، أو الوصي . أما اللقب الثالث الذي كان يطلق على الأمراء القراخانيين؛ هو لقب آل أفراسياب نسبة إلى ملكهم الأول التركي أفراسياب.

من المؤكد أن اعتناق أعداد كبيرة من القراخانيين للدين الإسلامي في سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م وفي سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م، كان قد سبقه اعتناق أمرائهم للدين الإسلامي ؛ أي أن القراخانيين قد ساروا على هدى ونهج أمرائهم في ذلك، وقد اشتهر الأمير ستوق بجهاده في نشر الدين الإسلامي بين أعداد

كبيرة من البوذيين والمسيحيين، وحارب الأتراك الوثنيين، وجمع تحت سلطاته أعدادا كبيرة من القبائل التركية؛ لينطلق بهم في فتوحاته باتجاه الغرب، لتوسيع سلطته. وكان للقراخانيين دور مهم في نشر الدين الإسلامي في أقصى الشرق، فضلًا عن دورهم في نشره في الجهات الغربية ففي عام ٤٣٥هـ/١٠٤٣م وبفضل جهود القراخانيين، اعتنق أكثر من عشرة آلاف من الأتراك القرغيز الدين الإسلامي، والذين كانوا يقيمون في فصل الصيف قرب بلاد البلغار، وفي فصل الشتاء، كانوا يقيمون قرب مدينة بلاساغون، وكان للقراخانيين-أيضا- دور كبير في نشر الدين الإسلامي في المناطق المحيطة بجبال تيان شان في الصين في القرنين ٥هـ/١١م و٧هـ/١٣م، وقد عرف الأمراء القراخانيون بتمسكهم بمبادئ الدين الإسلامي وتعاليمه، ويتضح هذا من خلال اهتمامهم بأهل الزهد والتصوف، فضلا عن ذلك، فإن الأمراء القراخانيين كانوا قد امتنعوا عن شرب الخمر(١).

اتخذ الأمير ساتوك -بغراخان عبد الكريم- مدينة كاشغر عاصمة له، لكنه نقل العاصمة بعد ذلك إلى "بلاساتمون"، حيث حاول القراخطائيون من هناك فتح بلاد ما وراء النهر، وما إن قامت هذه الدولة حتى شرعت في محاربة أعداء الإسلام، ولاسيما المجاورين لها من الأتراك الوثنيين، وقد قاد ظهور القراخطائيين في هذه المنطقة إلى اصطدامهم بالسامانيين، وكان ذلك في عام ٣٧٩هـ. وتمكن القراخانيون من إلحاق الهزيمة بجيش السامانيين، وأسر جماعة من القادة، واستطاعوا احتلال بخارى عام ٣٨٨هـ دون مقاومة، وبذلك أنهوا حكم السامانيين بها .

---

(١) انظر: د. سعاد هادي حسن إرحيم الطائي، القراخانيون دراسة في أصولهم التاريخية وعلاقاتهم السياسية ودورهم في الحياة العلمية، دمشق، سوريا ٢٠١٦م، ص١٧-٣١، ٤٠- ٤١

لم تحظ الدولة القراخانية باهتمام المؤرخين المعاصرين لها إلا بعد قضائها على الدولة السامانية بعد صراع طويل عام ٣٨٩هـ/٩٩٩م حيث ظهرت كدولة إسلامية مستقلة لا تخضع لسيادة دولة أخرى، وتقاسمت مع الدولة الغزنوية أملاك السامانيين فى بلاد ما وراء النهر واعتبر نهر جيحون (أموداريا) الحد الفاصل بين أملاك الدولتين. عاصرت الدولة القراخانية الدولة السامانية والغزنوية والسلاجقة، ودولة الأويغور الثانية والتى دخلت في تبعيتها فى القرن الثانى عشر الميلادى، ودخلت مع الجميع فى علاقات ودية وصراعات أيضًا كان من أخطرها الصراعات مع دولة السلاجقة والتي سبقت نهاية الدولة القراخانية.

قُسمت الدولة القراخانية إلى قسمين فى عهد الخاقان الأعلى أرسلان خان حيث كان ضعيف الهيبة حريصًا على إرضاء إخوته وأقاربه فقسم الدولة بينهم مما أدى لسعى البعض منهم للانفصال عن سلطانه، شملت الدولة الشرقية تركستان الشرقية الحالية وعاصمتها بلاساغون، ثم كاشغر ويحكم فيها الخان الأعظم دون سلطات تذكر على القسم الآخر من الدولة، بينما شملت الدولة الغربية إقليم فرغانة وما بين النهرين وعاصمته الأولى سمرقند ثم بخارى.

مع ضعف حكام الدولة القراخانية وتزايد صراعاتها الداخلية والخارجية فقدت الدولة الكثير من قوتها وتماسكها وهاجمها القراخطاى واستولوا على بلاساغون وجعلوها عاصمة لهم، كما انتهزوا فرصة تمرد حاكم ختن على سلطة الخان الأعلى فى كاشغر واشتعال الحرب بينهما فهاجموا كاشغر وختن وسقطت الدولة القراخانية الشرقية فى يد القراخطاى عام ٥٢٢هـ/

١١٢٨م، وفر الخان الأعلى وحكام الأقاليم إلى المناطق الخاضعة للدولة القراخانية الغربية.

بعدما ثبت القراخطاى أقدامهم فى حكم تركستان الشرقية اتجهوا للسيطرة على الدولة القراخانية الغربية وقاموا بالهجوم عليها، وهزموا جيش محمود خان حاكم الدولة القراخانية الغربية عام ١١٣٧م، وأدت هزيمته إلى تمرد الكثير من البدو الأتراك فى نواحى سمرقند على حكمه، فاستنجد الخان محمود بالسلطان سنجر السلجوقى لمواجهة البدو والقراخطاى، وقد نشبت المعركة الفاصلة بين التحالف القراخانى السلجوقى-الأتراك المسلمين الذين كان يساعدهم سنجر السلجوقي- وبين جيش القراخطاى-الأتراك الوثنيين "الخطا"- الذين كان يساعدهم ملك الصين(٢٠٠ألف) جندى مدعوما بنحو (٤٠ ألف) من البدو فى "قطوان" شمال سمرقند، ولقى التحالف القراخانى السلجوقى هزيمة ساحقة، وذلك فى صفر ٥٣٦هـ-١١٤١/٩/٩م. وسقطت على إثر ذلك الدولة القراخانية الغربية، واستعمل القراخطاى أمراء الدولة القراخانية كحكام لهم على بعض المناطق، وفشلت محاولات بعض أمراء القراخانيين لإعادة إحياء دولتهم مرة أخرى. ويصف ابن خلدون الموقف بقوله: واستقرت الدولة فيما وراء النهار للخطا، وهم يؤمئذ على دين الكفر وانقرضت دولة الخانية المسلمين الذين كانوا فيها، وذلك سنة ٥٣٦هـ[1].

---

(١) انظر: علي محمد محمد الصَّلاَّبي: دولة السلاجقة ، ص٢٤-٢٥ ، ١٣٠- ١٣٣

الفصل الثالث

الدولة الخوارزمية

أولًا

الحالة السياسية في الدولة الخوارزمية

الخوارزميون

(٤٩٠- ٦٢٨هـ /١٠٧٧-١٢٣١م)

نشأت الإمبراطورية الخوارزمية في العصور الوسطى، وقد اتفق الجغرافيون المسلمون في تحديدهم لإقليم خوارزم، فذكروا إن حدوده من الغرب بلاد الترك الغزية، ومن الجنوب بلاد خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضًا. أما خوارزم في الوقت الحاضر فتقع ضمن الاتحاد السوفييتي سابقا، ووزعت بين جمهوريتي أوزبكستان، وتركمانستان.

شهد القرن الخامس الهجري تأسيس الدولة الخوارزمية، لكنها لم تدم طويلًا؛ بسبب اشتباكها مع المغول الذي انتهى بانهيارها. وكانت مدة بقائها منذ تولى حكمها قطب الدين محمد بن أنوشتگين عام٤٩٠هـ (١٠٩٦م) حتى مقتل السلطان جلال الدين تزيد على١٣٨ سنة، حكم فيها سبعة سلاطين.

انطلق سلطان الدولة الخوارزمية من إقليم خوارزم الموزع الآن بين أوزبكستان وتركمانستان، واتسعت رقعتها وتقلصت خلال مراحلها من سلطان لآخر. وعرف إقليم خوارزم الإسلام مع فتوحات القائد المسلم الشهير قتيبة بن مسلم الباهلي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، واستمر الإقليم تابعًا لسلطان المسلمين في الخلافة العباسية، ثم انتقل إلى سلطان عدد من الدول التي عرفها التاريخ في المنطقة، فكان جزءً من سلطان الدولة الطاهرية ثم الدولة الصفارية ثم الدولة السامانية ومن بعدها الدولة الغزنوية، لينتهي به الأمر تحت سلطان الدولة السلجوقية منذ عام ٤٣٢هـ (١٠٤١م)؛ والتي شهدت عصرها بوادر تأسيس الدولة الخوارزمية، بفضل التركي

أنوشتگين؛ الذي كان أول الأمر عبدا تركيا اشتراه احد أمراء السلاجقة من بلاد الغور وشغل في البلاط السلجوقي وظيفة (الطشت دار) أي أنه يقوم بغسل أدوات الوضوء وآلة الحمام والأباريق والطاسات والكراسي وغير ذلك ، وقد جرت عادة السلاجقة أن يكافئوا أتباعهم من السقاة والحجاب وحراس الملابس وغيرهم بإقطاعات من الأرض، وكسب أنوشتگين ثقة السلطان ملكشاه فتدرج في المناصب حتى عُيّن واليًا على إقليم خوارزم عام ٤٧١هـ (١٠٧٧م). وظل على ولايته حتى وفاته في عام٤٩٠هـ/١٠٩٧م. ومن ثم فقد نشأت الدولة الخوارزمية بين أحضان دولة السلاجقة التي حكمت مناطق شاسعة في الشرق الإسلامي.

قطب الدين محمد خوارزم:

بعد وفاة أنوشتگين، خلفه ابنه قطب الدين محمد بن أنوشتگين، وكان رجلًا طموحًا ذا همَّة عالية، وعلى مقدرة وكفاية مثل أبيه، فحظي بمكانة لدى السلطان سنجر –آخر سلاطين الدولة السلجوقية القويَّة– فجعله واليًا على منطقة سجستان، وكان قطب الدين يحضر كل عام إلى بلاط سنجر مع ابنه أتسز ويقاتل في صفه. وظل يحكم باسم الدولة السلجوقية ثلاثين عامًا(٤٩٠هـ/٥٢١هـ)، نجح في أثنائها في تثبيت سلطانه، ومدّ نفوذه، وتأسيس دولته، وعُرف باسم خوارزم شاه، أي ملك خوارزم، وقضى وقته في نشر العدل والكرم بين الناس حتى أحبوه، ومات سنة ٥٢١هـ.

علاء الدين أتسز بن قطب الدين محمد خوارزم :

حينما توفي قطب الدين محمد خوارزم، خلفه ابنه "علاء الدين أتسز" بموافقة السلطان السلجوقي سنجر، ويعد تاريخ تولي قطب الدين حكم خوارزم تاريخ تأسيس الدولة الخوارزمية، فقد انصرف علاء الدين أتسز إلى توطيد دعائم

حكمه، فمد ظلال الأمن وفاض العدل واشتهر بالعلم والفضل وحسن السير بالرعية، فحظي بتأييد واسع ولما كانت كفاءة أتسز قد ظهرت للسلطان سنجر، فقد قربه السلطان واعتمد عليه واصطحبه معه في أسفاره وحروبه وزاده تقدما، وظل على وفاق دائم مدة ثماني سنوات .

الحرب بين علاء الدين أتسز وسنجر السلجوقي:

ظل أتسز على وفاق دائم مع السلطان سنجر دون أن يفكر في محاربته، وانصرف في هذه الفترة إلى تثبيت مركزه وتنمية قوة إقليمه، حتى صار له من القوة ما يضاهي قوة أسياده السلاجقة، ولما اطمئن أتسز على قوته سعى أن يستقل استقلالا تاما من السلاجقة متخذا سبيل التمرد والعصيان وسيلة للوصول إلى هدفه فثار على السلطان سنجر سنة ٥٢٩هـ، وشرع بمهاجمة ممتلكات السلاجقة الواقعة أسفل نهر جيحون وضمها إلى منطقة نفوذه، فبدا بذلك أول صدام عسكري بين السلاجقة والخوارزميين.

توجه السلطان سنجر لقتال اتسز، فجمع الجيوش ودارة معركة عنيفة بين الطرفين في شهر المحرم ٥٣٣هـ، وكان النصر فيها حليف السلاجقة الذين تمكنوا من القضاء على عدد كبير من الخوارزميين وكان من بين القتلى ابن أتسز، الذي وقع أسيرا، وجيء به إلى السلطان سنجر فأمر بشق جسمه إلى نصفين، فحزن عليه أبوه حزنا عظيما، وملك سنجر خوارزم وأقطعها إلى غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه، ورتب له وزيرا وقرر قواعده ، فلما فارق سنجر خوارزم عائدا انتهز خوارزم شاه الفرصة، فرجع إليها، وكان أهالي خوارزم يكرهون العسكر السنجري، ويؤثرون عودة خوارزم شاه فلما عاد أعانوه على ملك الإقليم، ففارق سليمان شاه.

سياسة أتسز مع سنجر :

خشي أتسز من عودة السلطان سنجر إلى خوارزم مرة ثانية فوجد من مصلحته الحصول على عطفه بإظهار الطاعة له، وقد عمل على ذلك فعلا فحاز رضاه وصالحه . وتدل مصالحة خوارزم شاه للسلطان سنجر على سياسة حكيمة وبعد نظر؛ لكي يحصل على الراحة والاستقرار فترة من الزمن ليعيد بها تنظيم قواه، ولم يمضي سوى وقت قليل حتى نقض الصلح المعقود، وشرع بمهاجمة ممتلكات السلاجقة من جديد فقاد قواته ، وهاجم بخارى، وذلك في ٥٣٤هـ، وقتل حاكمها زنكي بن علي .

تحالف أتسز مع قبائل الخطا ومعركة قطوان ٥٣٦هـ :

لم يكتفِ أتسز باستيلائه على بخارى، بل سعى لكسب حليف إلى جانبه لمقاومة سلطان سنجر، فتحالف التي كانت قد استقرت في بلاد ما وراء النهر في القرن السادس الهجري ونجحت في تأسيس دولة متخذة مدينة بلاساغون، وحثها على مهاجمة ممتلكات السلاجقة في بلاد ما لها وراء النهر، ونتيجة لذلك أخذت قبائل الخطا تشن غاراتها على البلاد الإسلامية، وتمعن فيها سلبًا ونهبًا وتدميرًا، وبعدها لم يجد السلطان سنجر مفرًا من التحرك لقتالها بعد أن اشتكى عماله في تلك النواحي من كثرة اعتداءاتها، فسار سنجر بجيشه لمحاربة قبائل الخطا، فالتقى الطرفان في معركة بالقرب من سمرقند تسمى معركة قطوان وذلك عام ٥٣٦هـ، خسر فيها سنجر خسارة كبيرة، وأسرت زوجته وابنه ونجا بنفسه فهرب إلى ترمذ وبلخ، وبعد ذلك قام بفدية زوجته وبقية الأسرى بخمسمائة ألف دينار.

نتائج المعركة :

كانت هزيمة السلطان سنجر أمام الخطا ضربة عنيفة لقوة الإسلام، وفرصة مناسبة أمام أتسز في توسيع ممتلكاته، فأغار على ممتلكات السلاجقة في خراسان، واستولى على خزانة السلطان سنجر، وقطع الخطة له إلا إن أتسز لم يتمكن من ضم أي مدينة في خراسان إلى ممتلكاته، فاضطر إلى تركها حين عاد السلطان سنجر إلى خراسان بعد هزيمته أمام الخطا الخوارزميين، إلا أن سلوك الخوارزميين تجاه السلطان سنجر كان خطرا على الكيان السلجوقي إلا إن الأعمال التي ارتكبوها في خراسان بدافع الطيش من أتسز مهدت السبيل لكورخان صاحب الخطا الوثني أن يحقق أهدافه، فاستولى على كل بلاد ما وراء النهر بعد ان هزم السلطان سنجر في معركة قطوان ثم ولى كورخان على بخارى لتمكين ابن الأمير بيباني بن أخي أتسز حاكمًا من قبله .

حصار سنجر لإقليم خوارزم عام ٥٣٨هـ:

لم يحرك سنجر ساكنا أمام تجاوزات أتسز واعتدائه على حاضر ملكه؛ خوفا من تحالفه مع الخطا، غير أنه صمم على الانتقام في الوقت المناسب ، وفي سنة ٥٣٨هـ جمع السلطان سنجر جنوده، وسار إلى خوارزم، فجمع أتسز عساكره وتحصن بالمدينة؛ لأنه كان يدرك إن سنجر عازم على إزالة ملكه، ولما وصل سنجر الى خوارزم وجد أن أتسز قد تحصن بالمدينة ولم يخرج لقتاله وكان القتال يجري بين الفريقين من وراء الأسوار لمدة عشرين يوما، وحاول السلطان سنجر خلالها أن يستميل بعض الخوارزميين، إلا أنه فشل في ذلك، وحاول أحد قادة سنجر الاتجاه إلى الجانب الغربي من البلد وكان هناك أمير لأتسز يسمى مثقال تاجي، وحدثت معركة بين الطرفين

انهزم فيها تاجي، وبعده انسحب التاجي إلا أن سنجر توجه بعدد من الجنود وقام بإخراجه، وشدد سنجر حصاره على خوارزم حتى كاد أن يملكها لولا أنه وقع خلاف بين أمرائه عاد عليه بالضرر، ولما وجد أتسز أن الحصار حوله محكما وشديدا خشي على ضياع ملكه فأظهر ندمه لما بدر منه، وأرسل رسلا إلى السلطان سنجر يبذل المال والطاعة ليعود إلى ما كان عليه .

استقلال الدولة الخوارزمية عن طريق إضفاء الشرعية لها عام ٥٣٨هـ :

أ- موافقة الخليفة العباسي على استقلال خوارزم ٥٣٨هـ :

من المرجح أن أتسز قد أعلن استقلاله نهائيا عن السلاجقة في ٥٣٨هـ بعد إخفاق السلطان سنجر في القضاء عليه، وصار الخوارزميون بعد هذا التاريخ كيانًا سياسيًا مستقلًا، وهكذا رتب الخوارزميون أمورهم، ووحدوا أهدافهم، فنالوا الاستقلال، ولم يبق أمامهم إلا أن يعطوا دولتهم الصفة الرسمية ويصبغوها بالصبغة الشرعية بأن يحصلوا على موافقة الخليفة العباسي على قيامها واعترافه بسيطرتها على المناطق التي تحت يدها، والمناطق التي قد تسيطر عليها في المستقبل، لذلك كان على أتسز خوارزم شاه بعد أن نال استقلاله أن يحصل على موافقة الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (٥٣٢هـ-٥٥٥هـ)، وبعث إليه رسالة مطولة أظهر فيها موالاته للخلافة، وأشار إلى جهاد والده محمد بن أنوشتگين، وفضله على السلاجقة، كما ضمنها تحريضا للخليفة في سنة ٥٣٨ هـ وإخفاقه في النيل منها، ومما جاء في هذه الرسالة أنه طلب من الخليفة أن يصدر باسمه منشورا على ولاية خوارزم وديارها شرقيها وغربيها، وما يضاف إليها وينعطف من بلادها وديارها، وقد بعث إليه الخليفة بالخلع والتشريفات الأمر الذي يدل على أن الخليفة قد اعترف به حاكمًا شرعيًا .

ب- موافقة السلطان سنجر على استقلال خوارزم ٥٤٣هـ :

لأجل أن يحقق أتسز خوارزم شاه استقلال بلاده كليا عن السلاجقة، أخذ يثير المشاكل أمام السلطان سنجر بعد عودة الأخير من غزو خوارزم عام ٥٣٨هـ، وبعد ما سئم السلطان سنجر من الحملات المتعاقبة على خوارزم وكانت تكلفه الكثير من المتاعب، فاضطر سنجر إلى الاعتراف بأتسز حاكما مستقلا على الدولة الخوارزمية، وبذلك ترسخت الدولة الخوارزمية، وظهرت بصورة دولة قوية . وقد توفي أتسز في عام ٥٥١هـ.

إيل أرسلان:

لما توفي أتسز خوارزم شاه آلت سلطة الحكم لابنه إيل ارسلان، والذي أرسل إلى السلطان سنجر، وبذل له الطاعة والانقياد لأمره فأرسل إليه منشورا بولاية خوارزم، وسير إليه الخلع في شهر رمضان نحو ٥٥١هـ، وذلك بعد هروب سنجر من الأسر وعودته إلى مرو، وقد استمر حكم إيل أرسلان حتى عام ٥٦٨هـ.

استيلاء إيل أرسلان على خراسان :

حرص إيل أرسلان على أن لا يقتصر حكمه على إقليم خوارزم فقط بل رغب أن يمده إلى الأقاليم الأخرى المجاورة لاسيما خراسان، فنجح فعلا في الاستيلاء على بعض مناطقها وأقيمت له الخطبة في جرجان، وكان لاستيلاء الخوارزميين على هذه المناطق ودخولهم الى خراسان بداية مرحلة جديدة لأنهم أخذوا يدعمون قواتهم، وينتشرون في الأرجاء المجاورة لهم وأخذوا يتحينون الفرص للانقضاض على الممتلكات المجاورة، وحاول أرسلان أن يستغل النزاع بين الأمراء السلاجقة للاستيلاء على العراق العجمي وهو إقليم جبلي على خراسان وفارس، وأبدى إيل أرسلان رغبته في

الجهاد في سبيل الله ونصرة الدين في سنة ٥٦٨هـ لمحاربة الخطا والوثنيين الذين زاد اعتدائهم على البلاد الإسلامية لكنه مرض ومات في السنة ذاتها.

وفاة إيل أرسلان والنزاع على السلطة وتدخل الخطا:

عند وفاة إيل أارسلان ظهرت الفتنة بسبب تولية إيل أرسلان لابنه الأصغر السلطان شاه محمود، أما ابنه الأكبر علاء الدين تكش فكان يقيم بجنده في إحدى مدن بلاد تركستان، فاستاء من تولي أخيه الصغير وتقديمه عليه، فقصد إلى ملك الخطا في ما وراء النهر؛ ليكون حليفه ضد أخيه الصغير، وأطمعه في الأموال والذخائر، فجهز جيشا كثيفا، فلما اقترب من خوارزم خرج السلطان شاه محمود مع أمه، وسار إلى المؤيد صاحب نيسابور واستنجده، ودخل علاء الدين تكش إلى خوارزم بلا قتال، ولما اجتمع شاه محمود وأمه بالمؤيد، أغدقاه بالهدايا الجليلة وأطمعاه في الذخائر والأموال وجمع الجيوش للتوجه الى خوارزم، فتقدم اليهم علاء الدين تكش بجنده، فانهزم المؤيد، ثم أخذوه أسيرا، وجيء به إلى تكش خوارزم شاه، فقتل بين يديه، وهرب السلطان شاه محمود إلى دهستان وهي بلدة قرب خوارزم، فقصده تكش، وفتح المدينة عنوة، وهرب السلطان شاه محمود منها، لكن أمه بقيت فقتلها تكش، وعاد إلى خوارزم، وتوجه السلطان شاه محمود إلى غياث الدين ملك الغز فأكرمه، ولما ثبت قدوم علاء الدين في الملك ترادفت عليه رسل الخطا وطلب الأموال التي وعدهم بها؛ لأنهم رأوا أنهم هم الذين ملكوه، فأنفت نفسه من ذلك، وداخلته حمية الإسلام، فقتل أحد أقارب ملك الخطا، وأمر وجوه أهل خوارزم بقتل كل رجل من الخطا فنفذوا، ونبذ عهده مع ملك الخطا، فلما سمع السلطان شاه محمود سار إلى الخطا، وطلب نجدتهم ضد أخيه، فجهز معه جيشًا كثيفا من الخطا، فسار بهم وحاصروا

خوارزم، فأمر تكش بفتح ماء جيحون عليهم، وكادوا يغرقون، فرحلوا عن خوارزم وندموا على قصدهم، أما السلطان شاه محمود فصار مشردا في البلاد تارة عند الخطا، وتارة عند غياث الدين إلى أن مات عام ٥٨٩هـ.

سياسة علاء الدين تكش التوسعية (٥٦٨-٥٩٦هـ):

أما عن دور تكش خوارزم شاه في توسيع دولة خوارزم فإنه استغل انقسام الأمراء السلجوقيين على أنفسهم واستولى على الري سنة ٥٨٨هـ بعد أن قتل السلطان طغرل بن أرسلان السلجوقي آخر سلاطين السلاجقة، وهكذا أخذت الدولة الخوارزمية تتوسع شيئا فشيئا حتى تمكنت من ضم جميع الممتلكات السلجوقية في خراسان والعراق العجمي، ثم واصل تكش زحفه نحو همدان واستولى على الأقاليم كلها وعاد إلى خوارزم .

أخذ العداء يدب بين الخوارزميين والعباسيين حول اقتسام أملاك الدولة السلجوقية، وتطور الخلاف عندما بعث علاء الدين تكش خوارزم شاه إلى الخليفة العباسي يطلب السلطنة وإعادة دار السلطنة إلى ما كانت عليه في زمن السلاجقة، وأخذوا يطالبون الخليفة العباسي بالخطبة لهم في بغداد إلا إن الخليفة رفض طلباتهم فقابلوا رفضه بقطع الخطبة باسمه في بعض الأقاليم التابعة لهم.

استمر تكش خوارزم شاه في سياسته التوسعية فتمكن سنة ٥٩٤هـ أن ينتزع بخارى من الخطا بعد الانتصار عليهم.

ودخل تكش في حروب طويلة مع جيرانه من الغوريين –دولة مسلمة قويَّة لها أعظم الفضل في نشر الإسلام في الهند وباكستان وأفغانستان–، وكرَّر نفس خطأ أبيه واستعان بالقراخطاي على الغوريين، ولكنه هُزم هزيمة قاسية أمام شهاب الدين الغوري–من أعظم أبطال المسلمين–. وكان السلطان

"تكش" بطل هذه المرحلة، وتعد فترة حكمه التي امتدت أكثر من ربع قرن (٥٦٨-٥٩٦هـ/١١٧٣-١٢٠٠م) العصر الذهبي للدولة الخوارزمية، وقد اضطر الخليفة العباسي"الناصر"- رغم الخلاف بينه وبين الخوارزميين- إلى إصدار منشور يعترف له فيه بلقب سلطان، ويقرّه على حكم غرب خراسان وما وراء النهر وخوارزم. وتعد فترة حكم علاء الدين تكش التي امتدت أكثر من ربع قرن؛ العصر الذهبي للدولة الخوارزمية. ومات تكش سنة ٥٩٦هـ /١٢٠٠م، وخلفه ابنه علاء الدين محمَّد .

علاء الدين محمد خوارزم شاه واتساع رقعة الدولة الخوارزمية

حينما توفي علاء الدين تكش، خلفه ابنه علاء الدين محمد خوارزم شاه على العرش في ٢٠شوال٥٩٦هـ/٢٣نوفمبر ١٢٠٠م، وعُرف بلقب قطب الدين قبل وصوله إلى الحكم، وكان والده تكش قد عينه على خراسان (٥٩٣هـ /١١٩٧م)، وقاد في العام التالي حملة ضد القبائل الرحل في ضواحي جَند، وعاد إلى خوارزم بزعمائهم في الأغلال، وشارك والده بالإغارة على معاقل الإسماعيلية في قهستان(٥٩٦هـ/١١٩٩م)، وعاد إلى الجرجانية- الواقعة في ولاية خوارزم-بجثمان والده الذي مات في الطريق، وجلس لتقبل العزاء فيه .

سياسة علاء الدين محمد في التوسع :

أ- حرب علاء الدين مع الغورية وتحالفه مع الخطا:

كان يعاصر علاء الدين محمد من حكام الدولة الغورية الإخوان غياث الدين وشهاب الدين ويتوقعان بأن علاء الدين الضعيف لايقوى على مقاومتهم، فأغاروا على مرو وسرخس وطوس ونيسابور وغيرها من الممتلكات الخوارزمية، وقد أرسلوا حكاما ساموا الرعايا الخوارزميين سوء العذاب، ونهبوا أموالهم، فاستاء علاء الدين خوارزم شاه من تصرفاتهم، وصمم على إخراج

الغوريين من المناطق التي استولوا عليها وساعدته الظروف المحيطة بالغوريين على تسهيل مهمته، إذ توفي أحد الأخوين وهو غياث الدين وذلك نحو ٥٩٩هـ، ولم يقوى أخوه شهاب الدين على الاحتفاظ بما في يده من ممتلكات الخوارزميين، فاستعاد علاء الدين خوارزم شاه أملاكه الخراسانية وذلك عام ٦٠٠هـ، فاشتد شهاب الدين نفسه في مقاومة علاء الدين محمد وقاد حملة إلى خوارزم في السنة نفسها منتهزا وجود علاء الدين محمد في خراسان، ولكن حملته باءت بالفشل وذلك لاستغاثة علاء الدين محمد بقبائل الخطا، فأطبقت على قوات شهاب الدين المرتدة، وكادت أن تسحقها سحقا. وانتهت حروبه في خراسان إلى استرجاع أملاكه حتى هراة، وبعد وفاة السلطان شهاب الدين الغوري(٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، وهو الحاكم الوحيد في العالم الإسلامي في ذلك الوقت المؤهل لمنافسة علاء الدين، واضطرار خليفته إلى الاعتراف بالتبعية له بالخطبة والسكة آلت أملاك الغوريين التي تمتد إلى السند إلى حكمه، وتمكن من إلحاق مازندران في العام التالي، ومن الاستيلاء على كرمان (٦٠٥هـ/١٢٠٨م)، وحقَّق بذلك لنفسه مركز الصدارة في مشرق العالم الإسلامي[١] .

ب- تحالف صاحب سمرقند مع علاء الدين ضد قبائل الخطا ٦٠٤هـ:

التفت السلطان بعد ذلك نحو الشرق، وكانت قد أثقلته الجزية السنوية التي كان يدفعها ملوك خوارزم للخطا البوذيين، وكانت تتوارد عليه في عاصمته الجرجانية رسائل سكان بلاد ما وراء النهر الخاضعين لنفوذ الخطا تناشده كي يخلصهم من حكمهم، كما وعده عثمان سلطان سمرقند –سليل أحد فروع الإيلك خانية– منذ ٦٠٤هـ/١٢٠٧م أن يدفع له ما كان يُؤدِّيه

(١) انظر: د. عفاف سيد صبرة: التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، ط١، القاهرة ١٩٨٧م، ص٣٥-٦٧

للخطا من أموال، بالإضافة إلى الخطبة والسكة، وصادفت هذه الدعوات هوى في نفس السلطان للظهور بمظهر الزعيم الإسلامي المحرر للمسلمين من نير حكامهم الوثنيين، وزاد من رغبته ما وصله من كوچلك خان زعيم قبيلة النايمان المغولية يفصح له عن رغبته في خيانة الخطا الذين لجأ إليهم (٦٠٥هـ/١٢٠٨م) عند رفضه الخضوع لچنگيز خان، وعلى اقتسام أملاكهم مع السلطان، ولذلك حين حضر سفير الخطا إلى الجرجانية (٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) وأغلظ في طلب الجزية، ألقى به في نهر جيحون، وقد توجه علاء الدين لقتال قبائل الخطا، فالتقى الطرفان ودارت المعركة فيما بينهم، وقتلت قبائل الخطا الكثيرين من الجيش الخوارزمي، وقد وقع علاء الدين خوارزم شاه أسيرا بيدهم، إلا أنه خلص نفسه من الأسر وعاد بحملة كبيرة لمحاربتهم من جديد[1]، فانتصر عليهم، وكان للنصر الذي أحرزه السلطان على الخطا رنة فرح في ممالكه، فأضاف إلى ألقابه لقب "الإسكندر الثاني"، وحمل نقش خاتمه عبارة "ظل الله في الأرض"، ولما عاد إلى خوارزم، زوَّج ابنته من عثمان سلطان سمرقند، وزالت دولة الخطا من الوجود، وأصاب السلطان من أملاكها "ما وراء النهر".

ج- الدولة الخوارزمية في أوج قوتها التوسعية:

استطاع علاء الدين محمد خوارزم شاه أن يستولي على معظم إقليم خراسان، وقضى على دولة الخطا (٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، واستولى على بلاد ما وراء النهر، وأخضع لسلطانه مكران وكرمان، وساحل المحيط الهندي والأقاليم الواقعة غربي نهر السند، وبعد استيلائه على هذه الأقاليم فُتح

(١) خالد موسى حسيني وآخر، الدولة الخوارزمية (دراسة في أحوالها السياسية)، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد ٢٠، العدد ٣، ٢٠١٢م، ص٩

الطريق أمامه للاستيلاء على مدينة غزنة حاضرة الدولة الغورية فحاصرها حتى سقطت بيده عام٦١٢هـ، فوصلت الدولة الخوارزمية إلى أقصى اتساع لها، وامتدَّت سلطة علاء الدين من شمال بحر قزوين وبحر آرال شمالًا إلى المحيط الهندي جنوبًا، ومن السند شرقًا إلى حدود العراق غربًا[١].

العلاقة بين الخوارزميين والعباسيين:

أدى اتساع أملاك دولة الخوارزميين وسلطانهم علاء الدين محمد إلى طمعه؛ حيث وجد أنَّ الوقت قد أضحى مناسبًا ليطلب من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٨٢-١٢٢٥م) أن تجري الخطبة في بغداد باسمه، وكان في طلبه أشد إلحافًا من أبيه، وكان الناصر على شاكلة علاء الدين في الطموح والهمَّة وأيضًا في التآمر والخداع والقسوة، فرفض الناصر ذلك المطلب وكان لا يضيره لو وافق، ثم تمادى الناصر في ذلك فهجم بجيوشه على إقليم الجبال وهو من ضمن أملاك علاء الدين واحتله، وبدأ صراع طويل بين الرجلين، ولما لم يفضِ تبادل السفارات بين الطرفين سنة ٦١٤هـ/١٢٠٧م إلى نتيجة، ادعى خوارزم شاه أن الخليفة قد سقط حقه في إمامة المسلمين، لعجزه عن حفظ الثغور، وشغبه على السلطان المدافع عن الإسلام والمسلمين، وأعلن اعتناقه للمذهب الشيعي، واستصدر فتوى من بعض رجال الدين تقول: إنَّ الخلافة من حقِّ أبناء الحسين بن علي بن أبي طالب، وإنَّ آل العباس مغتصبون لها، وأسقط اسم الخليفة الناصر من الخطبة، ونادى بأحد أبناء علي بن أبي طالب كخليفة .

---

[١] https://islamstory.com/ar/artical/٣٤٠٧٨٦٢/

استطاع علاء الدين استعادة ما فقده في إقليم الجبال، وبدلًا من أن يتصالح علاء الدين مع الخليفة، ويتفقا فيما بينهم خاصة بعد أن لاح في الأفق خطر المغول، التفت للخليفة الناصر، وأعد جيشًا جرارًا لإزالة دولة بني العباس، واختار رجلًا علويًّا من تبريز اسمه علاء الملك ونصبه خليفة، وسار علاء الدين بنفسه إلى بغداد في شتاء٦١٧هـ/١٢١٩-١٢٢٠م، ولكن جيشه تعرض طوال أربعين ليلة للرياح الشديدة والثلوج، والتي مزقت جيشه، وأهلكت الرجال والدواب، وتعرض من سلم من قواته لهجمات سكان المناطق الجبليَّة، فعاد خاسرًا إلى بلاده، وتغير عزمه عن فتح بغداد، وكانت تلك أول صدمة قاتلة قابلته منذ أن ولي الحكم عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م.

الاحتكاك بين الدولتين الخوارزمية والمغولية :

تزامن مع اتساع الدولة الخوارزمية، وازدياد نفوذها ظهور التتار(المغول) ، وبروز دولتهم على يد "تيموچين" المعروف بـ"چنگيز خان"، الذي استولى على مساحات شاسعة من بلاد الصين، وتوج جهوده بالسيطرة على العاصمة بكين(٦١٢هـ/١٢١٥م). وعقب زوال الدولة القراخانية، وانتصارات خوارزم شاه في صحراء القرغيز، تجاورت الدولتان الخوارزمية والمغولية، ولم يكن هناك مفر من الصدام بينهما، وحدث ما لم يكن منه مفر، حيث التقى السلطان علاء الدين وهو في طريقه قاصدًا صحراء قرغيز موطن عشائر القبچاق بفرقة من الجيش المغولي بقيادة "جوجي- توشي- بن چنگيز خان"؛ تطارد المتمردين التتار، فأرسل المغول رسالة إلى السلطان بأنهم قدموا فقط لمحاربة الثوار والمتمردين، ولكن علاء الدين أغتر بقواته، وأصدر أمره بمهاجمتهم، ورغم ضخامة الجيش الخوارزمي، لكنه لم يفلح في تحقيق نصر حاسم على تلك الفرقة؛ لمهارتها في القتال، والتي اندهش لها الجيش

الخورازمي. وكان لهذا اللقاء أثر في نفس السلطان الخوارزمي، فاستشعر خطر هؤلاء الجيران الجدد، ولم يأمن غدرهم، وبدأ يتابع أخبارهم، وقد عدّ الفريقان هذه الحادثة خطأ، كما أن چنگيز خان لم يشأ أن يجاهر السلطان بالعداء بل حرص أول الأمر على مسالمته وسعى لعقد معاهدة تجارية وتبادل الرسل والسفراء معه .

أسباب الغزو المغولي للخوارزميين:

فكر چنگيز خان في أن أفضل طريقة لإسقاط الخلافة العباسية في العراق هي التمركز أولاً في منطقة أفغانستان وأوزبكستان، لأن المسافة كبيرة بين الصين والعراق، ولابد من وجود قواعد إمداد ثابتة للجيوش المغولية في منطقة متوسطة بين العراق والصين، كما أن هذه المنطقة التي تعرف بالقوقاز غنية بثرواتها الزراعية والاقتصادية، وكانت من حواضر الإسلام المشهورة وكنوزها كثيرة، وأموالها وفيرة، هذا بالإضافة لا يستطيع- تكتيكياً- أن يحارب العراق وفي ظهره شعوب مسلمة تحاربه أو تقطع عليه خطوط الإمداد، كل هذه العوامل جعلت چنگيز خان يفكر أولاً في خوض حروب متتالية مع هذه المنطقة الشرقية من الدولة الإسلامية، والتي تعرف في ذلك الوقت بالدولة الخوارزمية، وكانت تضم بين طياتها عدة أقاليم إسلامية هامة مثل أفغانستان وأوزبكستان والتركمنستان وكازاخستان وطاجكستان وباكستان وأجزاء من إيران، وكانت عاصمة هذه الدولة الشاسعة هي مدينة أوجندة في تركمنستان حالياً، وكان چنگيز خان في شبه اتفاق مع ملك خوارزم (محمد خوارزم شاه) على حسن الجوار، ومع ذلك فلم يكن چنگيز خان من أولئك الذين يهتمون بعقودهم، أو يحترمون اتفاقياتهم، ولكنه عقد هذا الاتفاق مع ملك خوارزم ليؤمن ظهره إلى أن يستتب له الأمن في شرق آسيا، وأما وقد

استقرت الأوضاع في منطقة الصين ومنغوليا، فقد حان وقت التوسع غرباً في أملاك الدولة الإسلامية، وحتى تكون الحرب مقنعة لكل الطرفين، لابد من وجود سبب يدعو إلى الحرب، وإلى الادعاء بأن الاتفاقيات لم تعد سارية، وقد بحث چنگيزخان عن سبب مناسب. وانتظر حتى جاء ذلك السبب الرئيسي – كما سنرى لاحقًا–، ولكن ثمة أسباب خفية كانت هي البواعث لهذا الغزو، من أهمها:

١- **القحط الذي كان يسود أقاليم آسيا الشرقية:** حيث كانت حاضرة چنگيزخان (قراقورم) وما ترتب عليه من قحط نشأت عنه حاجتهم الدائمة إلى الكثير من المواد الغذائية اللازمة لحياتهم وحياة دوابهم، كما كانوا في حاجة ماسة إلى اقتناء ما يقيهم عاديات الطبيعة من ملبوسات وغيرها، وكان لقيام علاء الدين محمد خوارزم شاه بمنع الكسوات والأقوات، وغيرها عنهم، وإغلاقة طرق التجارة في وجوههم، أثره في توجيه أنظارهم إلى الدولة الخوارزمية .

٢- **حالة اليقظة والنشاط المغولي:** كان المغول في هذه الفترة في حالة يقظة ونشاط، يعيشون أمجاد انتصاراتهم السابقة في الصين وغيرها، وبسبب ذلك، وضعوا لأنفسهم خطة للسيطرة على المناطق المجاورة لهم، وقد سمعوا عن سعة الدولة الخوارزمية التي غدت أملاكها مجاورة لهم، وعن ثراءها الضخم وحضارتها الرائعة يطلعوا إليها.

٣- **قتل التجار المغول ومصادرة أموالهم:** وأما السبب المباشر والرئيسي، فإنه مقتل بعض رجال المغول الذي أشعل الحرب: كان چنگيز خان قد أرسل إلى علاء الدين محمد خوارزم شاه عند عودته إلى مدينة بخارى، بعد محاولته الفاشلة لغزو بغداد في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م وفداً من ثلاثة تجار

مسلمين هم: محمود الخوارزمي وعلى خواجة البخاري ويوسف كنكا الأتراري ، محملين بالهدايا من منتجات آسيا الوسطى رغبة في قيام علاقات تجارية وطيدة تخدم الطرفين. وأرسل مع الوفد رسالة وصفها بعض المؤرخين بأنها رقيقة من مغولي ذلك الوقت، يعرض فيها المسالمة والموادعة وعقد اتفاق تجاري بين البلدين، وفيما يلي نص الرسالة: (ليس يخفى علينا عظيم شأنك، وما بلغت من سلطانك، وقد علمت بسطة ملكك، وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض، وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي وغير خافٍ عليك أيضاً أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم، وأنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر، ومعادن الفضة، وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فإن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد). وبغض النظر عن الجدل الذي ثار حول هذه الرسالة بين بعض الكتاب، وهل كان مدلولها يحتوي على ازدراء شأن الأمير الخوارزمي أو على إطراء له وملاطفة، فإن الذي حدث هو أن علاء الدين خوارزم شاه أظهر استياءه منها، وبيت نية العدوان على چنگيز خان، واستدعى أحد رسله وهو محمود الخوارزمي، وانفرد به دون سائرهم، ووعده بالإحسان إن صدقه فيما يسأله، وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة الوفاء بما وعد، وشرط عليه أن يكون عيناً له على چنگيز خان، فأجابه إلى ما سأل رغبة ورهبة، ثم بدأ يستخبره عن حقيقة ما جاء في رسالة چنگيز خان إليه، فلما صدقه الجواب غضب الأمير الخوارزمي وعاد يسأل عن عدد عسكر چنگيز خان في حدة هنا أعرض الرسول عن الإجابة الصحيحة إبقاء على حياته وطلباً للسلامة، ورد في حذق وكياسة: ليس عسكره بالنسبة إلى هذه الأمم والجيش العرمرم إلا

كفارس في خيل، أو دخان في جنح ليل، ولكن علاء الدين خوارزم شاه عرف رغم هذه الإجابة، حقيقة موقفه، فصرف الرسل لما طلبوه من الموادعة والموافقة على تردد التجار بين البلدين.

على إثر توقيع هذا الاتفاق التجاري حمل چنگيز خان بحزم على تأمين التجارة بين شرق آسياحيث ممتلكاته وغربها حيث دولة خوارزم وما يليها غرباً، وسعى جاداً لتوسيع نطاقها، وتأمين طرقها من قطاع الطرق، وتزويد المسالك الرئيسية بحراس، وأصدر أوامره إلى هؤلاء الحراس بمرافقة كل أجنبي يحمل تجارة حتى يوصلوه إلى معسكرات المغول. لقد اهتم چنگيز خان على البعد الاقتصادي وبناء قوة اقتصادية، وسارت التجارة بين شرق آسيا وغربها بنظام تام، وحدث في ذلك العام أن وصلت إلى بلاد چنگيز خان قافلة تجارية قوامها ثلاثة من أهل بخارى يحملون بضائعهم من الثياب المذهبة وغيرها مما يليق بخانات المغول، وكان عند أحدهم ويدعى أحمد، ثوب رآه الحراس يليق بمقام چنگيز خان نفسه، لذا قادوهم إلى بلاطه، فلما مثل أحمد بين يديه طلب ثمناً باهظاً لبضاعته التي تعلق بها چنگيز خان، الأمر الذي أغضب الخان، وحمله على مصادرة بضاعة أحمد وتوزيعها بين أفراد حاشيته، وزج هذا التاجر في السجن، أما صاحباه فعندما سئلا عما يطلبانه ثمناً لبضاعتهما قالا: هذا كله إنما أتينا به لنقدمه خدمة للخان، لا لنبيعه عليه، ولم تجد محاولة حملهما على تقييمه عندئذ أمر چنگيز خان بإعطائهما ثمناً مجزياً من الذهب والفضة عن بضاعتهما، ورق للتاجر أحمد فعامله بالمثل، وعفا عنه، عقب ذلك أصدر چنگيز خان أوامره إلى الأولاد والخواتين والأمراء أن ينفذوا معهم جماعة من أصحابهم ومعهم الذهب والفضة، ليجلبوا من طرائف البلاد ونفائسها ما يصلح لهم، وقد اختلف

المؤرخون في عدد هؤلاء التجار، وبينما ذكر النسوي أنهم أربعة، قال ابن العبري أنهم مائة وخمسون تاجراً ما بين مسلم ونصراني وتركي، وقدرهم الجويني بأربعمائة وخمسين رجلاً كلهم من المسلمين. بينما لم يشر ابن الأثير ولا ابن خلدون إلى أي عدد لهم، ومهما يكن أمر عددهم فإن چنگيز خان بعث معهم رسولاً مغولياً من قبله يحمل رسالة إلى السلطان محمد خوارزم شاه يقول فيها: إن التجار وصلوا إلينا وقد أعدناهم إلى مأمنهم سالمين غانمين، وقد سيرنا معهم جماعة من غلماننا ليحصلوا من طرائف تلك الأطراف، فينبغي أن يعودوا إلينا آمنين ليتأكد الوفاق بين الجانبين، وتنحسم مواد النفاق من ذات البين .

وصل تجار المغول إلى مدينة أترار الواقعة في أقصى الحدود الشرقية للدولة الخوارزمية، وكان تعد مفتاح التجارة بين شرق آسيا وغربها، وكان بها حاكم من قبل خوارزم شاه يدعى ينال خان، وهو ابن خال خوارزم شاه، في عشرين ألف فارس، يقول النسوي فشرهت نفسه الدنيئة إلى أموال أولئك، وكاتب السلطان مكاتبة خائن مائن، يقول إن هؤلاء القوم قد جاءوا إلى أترار في زي التجار وليسوا بتجار، بل أصحاب أخبار، يكشفون منها ما ليس بوظائفهم، وأخذ يحسن له القضاء عليهم، ويغريه بما معهم من أموال، ويطلب، إذنه في مصادرتهم وقتلهم، فطلب السلطان منه التحفظ عليهم، حتى يرى رأيه بصددهم، لكن "ينال" قتلهم، وصادر تجارتهم، واستولى على ما بحوزتهم[١]، وذكر بعض المؤرخين أن "علاء الدين" هو الذي أمر بهذا، ولم يقدم واليه على هذا التصرف الأحمق من تلقاء نفسه.

---

(١) انظر: د.علي محمد الصَّلاَّبِي: المغول (التتار) بين الانتشار والإنكسار، ط١، لبنان ٢٠٠٩م ص٨٣-٨٧

كان من الطبيعي أن تسوء العلاقة بين الدولتين بعد الحادث الطائش الذي أقدم عليه السلطان، دون أن يدري أن كل قطرة من دماء هؤلاء التجار كلفت المسلمين سيلاً من الدماء لم ينقطع لفترة طويلة، وأرسل جنكيز خان إلى السلطان مطالبًا بتعويضه عن الخسائر، وتسليم حاكم "أترار"؛ ليقتص منه طالما تصرف من تلقاء نفسه، لكن السلطان رفض احتجاجه، ولم يلجأ للّين، وتملكته العزة بالإثم، فقتل الوفد الذي يحمل الرسالة دون بصر بعواقب الأمور، قاطعًا كل خيط لإحلال السلام محل الحرب .

الحرب بين الخوارزميين والمغول

كان قتل الرسل يعني إعلان الحرب بين الدولتين، وقطع كل أمل لحسن الجوار وحدوث السلام، كما كانت مذبحة أترار وموقف السلطان من أعضاء السفارة كافية لإثارة غضب جنكيز خان وإصراره على الانتقام؛ حيث قرَّر مهاجمة علاء الدين خوارزم شاه .

١- اكتساح بلاد ما وراء النهر:

كان علاء الدين محمد خوارزم شاه قد بعث- على إثر مقتل تجار المغول وهو مقيم بمدينة بخارى- بعض جواسيسه إلى بلاط جنكيز خان، للوقوف على مدى استعداد المغول للحرب، فقضوا مدة طويلة، استطاعوا خلالها أن يؤدوا المهمة التي عهد إليهم بها، وقالوا بعد عودتهم: إن عدد المغول لا يبلغه الحصر، وأنهم من أصبر الناس على القتال، وأعرفهم بفنونه، ولهم مصانع للسلاح، تكفي حاجتهم منه، ومواد تموينهم وافرة، وأوضح أولئك الجواسيس أن حقائق الأمور هناك تشير إلى أنه لا قبل لأحد بمقاتلة المغول. ودرس علاء الدين محمد خوارزم شاه بإمعان هذه المعلومات، فأدرك فداحة ما وقع فيه من خطأ بقتله تجار المغول ورسلهم،

وندم على ذلك، ولكنها ليست ساعة الندم، ثم أخذ يعمل فكره ويدبر أمره، واستشار رجلاً يثق به ويدعي الشهاب الخيوفي الفقيه، فأشار عليه بإعلان النفير العام، ودعوة من بقي من ملوك الأطراف ليلحقوا به في جيوشهم، فإذا اكتملت تعبئة الجيوش سار بها إلى جانب نهر سيحون حيث حدود دولته الشرقية مع المغول، غير أن أمراء وأرباب المشورة في دولته رأوا عكس هذا الرأي، وأشاروا بأنه من الأصوب ترك المغول حتى يعبروا سيحون، ويتقدموا في الوهاد، والصحارى والمضايق والوديان التي يجهلون مسالكها، حتى إذا وصلوا بخارى كان التعب حلّ بهم، وبذلك يمكن الظهور عليهم، وإفناؤهم عن بكرة أبيهم، ولم يلبث خوارزم شاه أن عمل على تجهيز جيشه للقاء المغول، وبينما كان خوارزم شاه يسير في اتجاه الشرق، مجداً في طلب المغول عقب استعداده على هذا النحو، كان چنگيزخان يعبيء جيشاً جرارًا.

أ- الاستيلاء على مدينة أترار:

بدأ چنگيز خان غزوه شرق الدولة الإسلامية في عام ٦١٥هـ/١٢١٨م، فقد وصل إلى حافة نهر سيحون على مقربة من مدينة أترار على رأس جيش قوامه نحو ستمائة ألف من خيرة جنده، وكانت غاية الجيش في المرحلة الأولى الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، المحصورة بين نهر سيحون في الشرق، وجيحون في الغرب، لذا وضع خطته على أساس الأطباق على هذه البلاد من أربعة جوانب، بحيث يتعذر على الجيش المدافع صد الهجوم، وهكذا تحركت الجيوش الأربعة في وقت واحد للانقضاض على بلاد ما وراء النهر والاستيلاء عليها وبدأ الخوارزميون بمهاجمة قوات المغول، وسرعان ما قامت الحرب سجالاً بين الفريقين، وكان الجانب المغولي فيها بقيادة أحد أبناء چنگيز خان، وقدر عدد القتلى من

المسلمين عشرين ألفاً، ومن المغول بما لا يحصى كثرة وفي الليلة الرابعة من القتال افترق الجيشان، ورجع المسلمون إلى بخارى حيث أمر خوارزم شاه أهلها وأهل سمرقند بالاستعداد للحصار، وترك في بخارى عشرين ألفاً وفي سمرقند خمسين ألفاً، ثم عاد إلى خوارزم وخراسان ليجمع الجند، كانت مدينة أترار محصنة تحصيناً قوياً، وبها حامية قوامها خمسون ألف رجل يعاونها جيش آخر بنحو عشرة آلاف على رأسهم وزير الأمير محمد خوارزم شاه، ودام الحصار خمسة أشهر، مما ترتب عليه عجز الجيش الخوارزمي عن المقاومة، ثم هزيمته، وبذلك تيسر لقوات المغول الاستيلاء على مدينة أترار التي تعد مفتاح ما وراء النهر، وكان هجوم المغول على هذه المدينة عنيفاً، فقد كانوا يتوقون للثأر من (ينال خان) حاكم هذه المدينة وقاتل التجار، لقد استولوا على هذه المدينة عنوة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م) ونهبوها وطاردوا سكانها، وقد تقهقر ينال خان إلى قلعة المدينة، واحتمى بها نحواً من شهر، فقد في أثناءه معظم رجاله، ومع ذلك ظل يدافع دفاع اليائس المستميت، ولما وجد نفسه محاصراً من كل جانب قذف بنفسه إلى سقف أحد المنازل، فتبعه جنديان مغوليان وهو لا يملك أن يدافع عن نفسه إلا بقذفهما بالحجارة التي كان يناوله إياها بعض النسوة، وأخيراً وقع في أيدي المغول الذين قادوه إلى معسكر چنگيزخان وكان آنذاك أمام مدينة سمرقند، ولكي ينتقم چنگيز خان منه عمد إلى التنكيل به، فأمر بعض رجاله أن يصهروا كمية من الفضة ويسكبوها في عينيه وأذنيه، وهكذا نفذ چنگيز خان وعيده في قاتل تجاره ورسله، وبسقوط أترار سقط مفتاح بلاد ما وراء النهر.

ب- الاستيلاء على مدينة جند:

أما عن الجيش الثاني الذي كان تحت قيادة جوجي أكبر أبناء چنگيز خان، فكانت قبلته مدينة(جند) إحدى معاقل المسلمين على نهر سيحون، وقد وصل هذا القائد إلى هذه المدينة بعد أن استولى على كثير من المعاقل والمدن الواقعة على نهر سيحون، وتمكن بذلك من السيطرة على كل مجرى هذا النهر تقريباً، فلما اقترب من مدينة "جند" غادرها حاكمها ليلاً تاركاً لسكانها أمر الدفاع عن أنفسهم وعن مدينتهم، وقد نصب المغول المجانيق حول المدينة استعداداً لتحطيم أسوارها، وإزاء هذا الاستعداد من قبل المغول انقسم الأهالي على أنفسهم، فرأى فريق منهم ضرورة الدفاع عن المدينة، ورأى فريق آخر لا فائدة من الدفاع وآثر أن يسلم المدينة في الحال، لعل الأهالي يجدون في ذلك خير شفيع ينجيهم من الوقوع تحت سيوف المغول، والظاهر أن هذا الرأي كان يناصره أكثرية السكان بدليل أن المغول لم يجدوا مقاومة ما داخل المدينة، وهم يدكون أسوارها من جميع جهاتها، وأخيراً سلمت المدينة وسلم من سلم من أهلها، وقُتل من قتل المغول، وبعد أن وضع جوجي على المدن المفتوحة حكاماً مخلصين، أصدر أوامره لجنوده بالعبور إلى إقليم خوارزم .

ج- اجتياح بنكت وخجنده:

أما ثالث جيوش چنگيزخان التي سيرها للاستيلاء على بلاد ما وراء النهر، فقد سار إلى مدينة بنكت على نهر سيحون وخجندة إلى الجنوب منها، وتمكن المغول من دخول مدينة "بنكت" بعد أن سلمها الأهالي، وكان المغول قد أمنوهم على حياتهم، لكن المغول لما دخلوا المدينة فصلوا الجند عن المدنيين واعملوا القتل في رقاب الفريق الأول، واختاروا من الفريق

الثاني خيرة شبابه لينتفعوا به في أعمالهم الحربية، ثم سارت هذه الفرقة المغولية نحو الجنوب صوب مدينة خجندة على نهر سيحون، وقد اشتهرت بحدائقها وانتعاش التجارة فيها، كما اشتهرت بشجاعة أهلها وقوة بأسهم، ومما يلقت النظر أن(تيمور ملك) قائد حاميتها الخوارزمية، فضّل مغادرة المدينة مع ألف من جنوده إلى جزيرة صغيرة وسط النهر، ليكون في مأمن من غارات المغول، وعلى بعد كافٍ من مرمى سهامهم، وقد سار ما يزيد على عشرين ألف جندي مغولي، من أولئك الذين انتصروا على الخوارزميين في مدينة أترار وغيرها من المدن، لمساعدة هذه الفرقة المغولية التي كانت تحاصر(تيمور ملك)، وقد كلفت هذه الجموع بإحضار الأحجار من الجبال المجاورة وإلقائها في النهر، ليكونوا بذلك طريقاً يستطيع المغول أن يعبروا منها إلى هذا الخوارزمي الذي كان معتصماً في جزيرته، لكن (تيمور ملك) صمم على إفساد خطتهم، فصنع اثني عشرة سفينة كبيرة غطى جدرانها بالجلود، وكان يرسل في كل يوم ستاً من هذه السفن للإغارة على المغول الذين كانوا يعملون في هذا الطريق الموصل إلى الجزيرة فيرمونهم بسهامهم، ولكنه وجد في النهاية أن مقاومته لن تجدي نفعاً فصمم على الهرب، وبعد أن شحن جنوده وأمتعته في سبعين مركباً، سار في النهر متجهاً نحو الشمال على أن المغول كانوا يراقبونه من جانبي النهر، وقد علم وهو يسير في النهر أن جوجي بن چنگيز خان قد حشد قوة كبيرة من المغول على مقربة من جند على جانبي نهر سيحون، وأنه سد هذا النهر بقنطرة من السفن، واضطر(تيمور ملك) أن يترك النهر إلى الساحل حيث امتطى جواده وقاتل أعداءه قتال اليائس، واستطاع أن يخدع مطارديه وأن يصل في النهاية إلى مدينة خوارزم حيث كان يرابط جلال الدين بن علاء الدين خوارزم شاه.

د- استيلاء المغول على بخارى:

كانت مدينة بخارى- تقع حاليًا في دولة أوزبكستان- من بين مدن بلاد ما وراء النهر التي طمع المغول في الاستحواذ عليها، فنزل چنگيز خان بظاهرها في أواخر عام ٦١٦هـ/١٢١٩م وبدأ يضرب حصاراً محكماً حولها، وكانت القوة الإسلامية التي أُوكل إليها أمر الدفاع عنها تتكون من عشرين ألفاً، واستمر الهجوم على بخارى ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام ظهر للجيش الخوارزمي المدافع ضعفه وقلة حيلته، وعندئذ تقهقر إلى خراسان، التماساً للنجاة، ولم يزل يطاردهم المغول على مقربة من نهر جيحون حتى أنزلوا بهم هزيمة ساحقة ولم ينج من القتل إلا شرذمة يسيرة، وأحس الخوارزميون الذين بقوا في المدينة أن قوتهم ضعفت وبدأ اليأس يدب في نفوسهم وهم يرون خيرة الجند يغادرها، فأرسلوا قاضي المدينة "بدر الدين" يعرض تسليم المدينة ويطلب الأمان، فأجابه چنگيزخان إلى ذلك، وفتحت أبوابها في ٤ ذي الحجة عام٦١٦هـ/١٢١٩م. ودخل چنگيزخان المدينة ثم جمع سكانها وأمرهم أن يخرجوا كنوزهم المدفونة وألا يبالوا بما ليس مدفوناً لأنه يستطيع أن يعثر عليه، وقد ترك كل رجل من هؤلاء الأغنياء في حراسة رجل مغولي على أنه وجد أن هناك أربعمائة فارس خوارزمي لم يخرجوا من المدينة مع سائر رجال الحامية فأرغمهم على الالتجاء إلى القلعة، وقد جند المغول من سكان المدينة من يقدر على حمل السلاح وساروا إلى القلعة وحاصروها وبعد أن أحدثوا في حوائطها عدة ثغرات دخلوها، وحينئذ لم يتركوا فيها شخصاً واحداً على قيد الحياة، على أن هذه الحامية الصغيرة دافعت عن نفسها بكل شجاعة أحد عشر يوماً، وقتلت عدداً كبيراً من المغول، وعدداً كبيراً من السكان الذين استخدموا في الحصار. ويظهر أن چنگيز خان ركب

رأسه عندما سقط عدد كبير من المغول ضحايا في ساحة القتال، فأمر جميع السكان أن يخرجوا من المدينة مجردين من أموالهم، لا يحمل أحداً منهم غير ملابسه التي يرتديها ثم دخل المغول المدينة فأعملوا فيها النهب وقتلوا من صادفهم من السكان، وأشعل المغول النار في المدينة فاحترقت بأسرها، إذ أن معظم مبانيها كانت من الخشب، ولم يبق من مباني المدينة إلا تلك المبنية من الآجر، وأخيراً نزح من بقي من أهلها إلى إقليم خراسان، وقد أصبحت مدينة بخارى أطلالاً بالية واستمرت على هذا النحو حتى أخذ چنگيز خان نفسه في إصلاحها وإعادة بنائها، قبل موته بزمن قصير.

هـ- اجتياح سمرقند ٦١٧هـ:

بعد أن دمر التتار مدينة بخارى العظيمة، وأهلكوا أهلها وحرقوا ديارها ومساجدها ومدارسها انتقلوا إلى المجاورة (سمرقند)- تقع بدولة أوزبكستان – وكانت سمرقند من أكبر مدن بلاد ما وراء النهر وأعظمها على الإطلاق، فهي حاضرة هذا الإقليم، وكانت مركزًا مهماً للتجارة، ولذلك أحيطت بأسوار ضخمة، يعلوها العديد من الأبراج للدفاع عنها، ويذكر ابن الأثير أنه عندما فرّ منها محمد خوارزم شاه كانت حاميتها تتألف من خمسين ألف مقاتل من الخوارزمية، وكان چنگيز خان على علم بكل هذه الاستعدادات الدفاعية، لذا وضع خطته الأصلية على أساس أنه سيخوض عند أسوارها حرباً شديدة قاسية، ومهد چنگيز خان للاستيلاء على سمرقند بإخضاع جميع المناطق التي كانت تحيط بها إخضاعاً يتعذر معه أن يستفيد خصومه منها أثناء حصاره لها، ونجح في تحقيق هذه الغاية، ورأى أن يتولى بنفسه قيادة الهجوم على هذه المدينة، فحالفه النجاح في الاستيلاء على بعض أبوابها، وبينما رأت أكثرية الحامية التي تنحدر من أصل تركي ضرورة التسليم، رأى

الفريق الآخر ضرورة القتال، وارتدوا إلى القلعة محاربين. ووافق چنگيز خان على فكرة التسليم، ووعد هؤلاء الأتراك بأنهم سيدخلهم في جيشه، لذا خرجوا إليه مع عائلاتهم، وانضموا إلى جند المغول، غير أنهم ما كاد المساء يقبل حتى قتلوا منهم ثلاثين ألفاً من أبرزهم أمراؤهم، فأيقن أهل المدينة ومن بقي من أفراد حاميتها بالهلاك، فأوفدوا في اليوم الرابع للقتال قاضي المدينة وبعض علمائها، يعرضون على چنگيز خان التسليم، مشترطين أن يأمنهم على حياتهم، فأجابهم إلى طلبهم، وحينئذ فتحت الأبواب لكن المغول لم يرعوا عهدهم إذ أمروا السكان بالخروج من المدينة، ثم أعملوا السيف فيمن لم يخرج، واستولوا على قلعتها، ونهبوا البلد، وأحرقوا الجوامع، وكان ذلك في المحرم سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م وأرغم چنگيز خان القادرين من أهل سمرقند على حمل السلاح جنوداً في صفوف المغول، وبعد سقوط سمرقند، وهروب علاء الدين من وجه القوات المغولية، أصبحت الأراضي الخوارزمية مفتوحة على مصراعيها دون حامٍ ضد قوات چنگيزخان، فأخذت المدن والمقاطعات تتساقط واحدة تلو الأخرى في أيدي القوات المغولية الزاحفة وما أن قارب فصل ربيع ذلك العام حتى أكمل المغول فتحهم لجميع الأراضي الخوارزمية في إقليم ما وراء النهر، وبانهيار جميع بلاد ما وراء النهر انهارت خطوط الدفاع التي اعتمد الجيش الإسلامي عليها، وتيسر للمغول الاستيلاء على أقاليم شرق الدولة الإسلامية الباقية دون عناء.

٢- اجتياح الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية ووفاة محمد خوارزم شاه:

كانت الهزائم التي نزلت بالسلطان الخوارزمي قاسية، ولم تكن من قلة في العدد والعتاد، ولكنها نتيجة لسوء القيادة، وفرقة في الصف، وحب الدنيا،

وتقاعس عن الجهاد، فسقطت الدولة المترامية في سنوات قليلة، ولم يعد أمام السلطان سوى التوجه إلى مكان آمن يعيد فيه تنظيم جيشه، ويعاود الجهاد حتى يسترد ما فقده، لكنها كانت أحلام بددها إصرار چنگيز خان على تتبع السلطان الفارّ من بلد إلى آخر، فواصل الزحف بجيوشه متعقبًا السلطان محمد الذي زلزل الخوف قلبه، وفقد القدرة على المقاومة والصمود، فظل ينتقل من بلد إلى آخر، وجند المغول تطارده، ففكر في الالتجاء إلى خليفة بغداد رغم ما بينهما من عداء، فسار حتى نزل (بمرج دولة آباد) من أعمال همدان، ووصل معه من جيشه زهاء عشرين ألف فارس، فواجه زحف القوات المغولية، مما اضطره إلى للجوء إلى إقليم مازندران جنوبي بحر قزوين. وفي تلك الأثناء تمكن المغول من السيطرة على إقليم خوارزم، أهم ولايات الدولة، وأسروا "تركان خان" والدة السلطان ومن معها من أبنائه وبناته، فلما قُدّموا إلى چنگيز خان أمر بقتل أبناء السلطان الخوارزمي، وكانوا صغار السن، وزوّج أبناءه وبعض قادته من بنات السلطان. وحينما علم السلطان بتلك الأنباء المفجعة ازداد غمًا على غم، وأصابه الحزن والهم، وكان قد انتهى به الفرار إلى مرسى يعرف بـ(آبسكون)، يقول النسوي: وظل في إحدى قرى هذا الميناء يصلي بالناس في المسجد وينذر لله لئن كتبت له السلامة وأعيد له ملكه ليقيمن العدل، إلى أن انكشف أمره، وهاجمه التتار، وعندئذ ركب البحر إلى قلعة في إحدى جرز بحر الخزر، تدعى جزيرة (أوغر تشالي)، أو جيركن الحالية، يحوطه اليأس والقنوط، فأسلم نفسه للأحزان، وسيطر عليه القلق، وحلت به الأمراض، ولم تكفّ عيناه عن البكاء على المجد الضائع والرئاسة والسلطان، وظل على هذا الحال حتى أسلم الروح في١٣ من شوال٦١٧هـ/ ٩من ديسمبر ١٢٢٠م، ودفن فيها، ومما يؤسف له أن أتباعه

عجزوا عن إيجاد كفن يكفنونه به حتى أن شمس الدين محمود وكان من المقربين إليه خلع قميصه وكفنه به. وقبيل وفاته أوصى لابنه جلال الدين منكبرتي بالسلطة، فحمل راية الجهاد، وواصل رحلة الكفاح[١].

السلطان جلال الدين الخوارزمي :

في مثل هذه الظروف الدامية والمعنويات المحبطة والصعود المغولي والضعف الخوارزمي ورث جلال الدين الملك، وقد خسرت دولته معظم مدنها وأراضيها وجنودها ومصادر قوتها وثرواتها. لكن السلطان الجديد كان يحمل عزمًا كبيرًا، اشتهر به منذ الصغر حيث كان أكثر أبناء السلطان تعلقًا بامتشاق الحسام وأكثرهم اتصافًا بصفات الشجاعة والجسارة والعقل؛ مما أهّله بجدارة لأن يحظى بمرافقة والده في مجالس صناعة القرار وساحات القتال.

قال الشهاب النسوي الموقع؛ المؤرخ الذي رافق جلال الدين خوارزم شاه: "كان جلال الدين أسمرًا تركيًا قصيرًا منعجم العبارة، يتكلم بالتركية والفارسية. وأما شجاعته فحسبك ما أوردته من وقعاته، فكان أسدًا ضرغامًا، وأشجع فرسانه إقدامًا، لا غضوبًا ولا شتامًا، وقورًا، لا يضحك إلا تبسمًا، ولا يكثر كلامًا، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب".

ويذكر أن جلال الدين كان قد عارض قرار والده بالفرار من المغول وآثر المواجهة، لكنه لم يتمكن من تغيير قرار السلطان. ولكن السلطان لضعفه فضل الفرار وترك رعيته من خلفه تواجه الموت بدم بارد، وبالفعل هرب إلى ما وراء النهر ثم إلى خراسان ومنها إلى العراق ثم إلى مازندران ثم إلى جزيرة "آبسكون" حيث أسلم الروح .

---

(١) انظر: حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول ، ص١٤٣-١٥٢ ، د.علي محمد الصَّلاَّبِي: المغول (التتار) بين الانتشار والإنكسار، ص ٨٩- ٩٩

الصحوة الأولى من جزيرة آبسكون :

توجه جلال الدين بعد وفاة والده من جزيرة آبسكون إلى خوارزم بصحبة أخويه قطب الدين أوزلاغ شاه وآق شاه، حيث رحب بهم الأهالي أحر ترحيب، ورأوا في عودتهم الأمل في رد عادية المغول .

تولّى جلال الدين السلطنة في ظروف قاسية تحتاج إلى رجال أقوياء تزيدهم المحن صلابة، وكان جلال الدين من هؤلاء، لكن الظروف التاريخية كانت أقوى منه فاعتلى الحكم والمغول يسيطرون على بلاد ما وراء النهر، وهي تعد أهم أجزاء دولته المتداعية، وامتلكوا إقليم "مازندران" على حصانته ومناعته، وسيطروا على الري وقزوين وتبريز عاصمة آذربايجان وبلاد الكرج، وبدأ جلال الدين بالعمل من نيسابور إلى غزنة يخطط للجهاد ضد المغول، وكان يحظى بقبول واسع بين الغزنويين، فقد كان دخوله بمثابة إحياء لعزائم الناس وإعادة أمل وثقة، ولقيت دعوته للعمل على بناء الجيش تمام الشغف والدعم من الأهالي الذين لم يبخلوا بكل ما يملكون في سبيل ذلك. لكن بذرة الشقاق التي زرعتها السلطانة تركان خاتون كان لها أثرها الفاسد، ففي الوقت الذي كان من المفترض أن يجتمع الجميع في وحدة صف واحدة بدأ أنصار أوزلاغ شاه –الذين لم يعجبهم توريث محمد خوارزم شاه السلطنة لابنه جلال الدين– بالتآمر لقتل جلال الدين أو سمل عينيه غير مبالين بالظروف المصيرية التي تمر بها الدولة.

وكان محمد خوارزم شاه قد نصب أوزلاغ شاه وليًا لعهده بتأثير جدته السلطانة تركان خاتون وأمه، لكنه بعدما عاين شراسة المغول وما يتميز به جلال الدين من كفاءة عن أخيه تراجع عن قراره قبل وفاته، وجعل جلال الدين وليًا لعهده، وألزم أبناءه بهذه الوصية .

كشف جلال الدين خيوط المؤامرة بمساعدة بعض الأوفياء من حوله ففرّ باتجاه خراسان ومعه قرابة ثلاثمائة فارس، وفي طريقه تمكن من تجاوز كمين خطير لچنگيز خان الذي كان يتربص به كأخطر رجل في الخوارزميين يجب القضاء عليه، فخاض جلال الدين معركة شرسة مع المغول في سهول براون شمال شرقي غزنة سنة ٦١٨هـ(١٢٢١م)، وانتصر عليهم ليكمل مسيره إلى نيسابور. وهنا يجب التركيز على جزئية تربص چنگيز خان الذي كان يشاهد كل خلافات الخوارزميين ويتحرك بناء على ذلك. ففي نفس الوقت الذي نصب فيه كمينًا لجلال الدين أرسل القائد المغولي جنوده إلى خوارزم وكان لا يزال فيها أوزلاغ شاه وآق شاه، فلم يجدا من بد إلا اللحاق بجلال الدين والفرار من هذا الزحف الوحشي لكنهما لم يوفقا في الفرار فاشتبكا في معركة بنواحي خراسان مع المغول قُتلا فيها وانتهت منازعة أوزلاغ شاه للملك، ليستقر بيد جلال الدين بشكل نهائي.

سقوط عاصمة الخوارزميين :

بعد أن أجهز چنگيز خان على بلاد ما وراء النهر، وبلاد العراق العجمي وآذربايجان، شرع في السيطرة على خراسان وخوارزم حتى تتم له السيطرة على بلاد الدولة الخوارزمية قاطبة، فسيطر المغول في عام ٦١٨هـ/١٢٢١م على مدينة بلخ، ومدينة مرو حاضرة الدولة الخوارزمية، وقتلوا فيها نحو٧٠٠ ألف مسلم، ثم ساروا إلى نيسابور فاستولوا عليها، ثم طوس فأخذوها دون عناء، ثم بسطوا سيطرتهم على هراة، واستولوا على مدينة خوارزم بعد جهد وعناء، فقد وجه چنگيز خان أقوى جيوشه للاستيلاء على عاصمة الخوارزميين عام ٦١٨هـ(١٢٢١م)، فأطبق عليها الحصار لمدة خمسة أشهر كاملة، ومع ذلك عجز عن دخولها لشدة مقاومة أهاليها،

فدفع بالمزيد من الجند؛ ليضاعفوا الضغط على أسوار المدينة حتى تمكنوا من إحداث ثغرة فيها، ودخلوا المدينة حيث دار قتال عنيف شرس بين المغول والمسلمين، وكانت خسائر الطرفين جسيمة فقد استمات المسلمون في هذا القتال، وبعد أن سيطر المغول على المدينة هرب المسلمون أو اختفوا في السراديب والخنادق والمنازل، فعمد المغول إلى هدم سد كبير على نهر جيحون، وأغرقوا المدينة بكاملها، وقتل بذلك أهل خوارزم جميعًا واندثرت مدينتهم بشكل كامل. وكانت هذه من أبشع جرائم المغول في التاريخ .

مرحلة الإعداد والجمع والتلاحم :

بدأ جلال الدين عهده بأن اتخذ من غزنة قاعدة للجهاد الإسلامي ضد المغول، واستطاع أن يكوّن بها جيشًا كبيرًا بلغ سبعين ألف مقاتل من الفلول الهاربة من المغول، وممن أخذتهم الغيرة على الإسلام وحب الجهاد من المتطوعين، كما حصل على التمويل لجيشه من أغنياء المسلمين وحتى فقرائهم الذين قدموا بلا تردد في مقام لا يتخلف عنه مسلم. وتزامن مع هذا النشاط العسكري الذي اجتمع في غزنة نشاط سياسي آخر بإرسال الرسائل واستنهاض الهمم لسائر الملوك والأمراء الذين تمردوا سابقًا على السلطان محمد خوارزم شاه وسائر المعارضين والجيران من الممالك الإسلامية والإمارات، فلقيت دعاوي جلال الدين قبولًا كبيرًا وحصل على الكثير من الدعم. كما أنه هادن من يستوجب المهادنة. فانتهت جهوده لاجتماع القوى من حوله واشتداد أمر الجيش وتمام الاستعداد لمواجهة المغول. وكان ممن انضم إليه سيف الدين بغراق أحد ملوك المسلمين، وكان مشتهرًا بشجاعته وإقدامه ورجاحة عقله في الرأي ومكيدة الحروب. ولم يكن هذا التطور ليغيب

عن أعين المغول حيث كان چنگيز خان يخطط لغزو وسط أفغانستان وجنوبها لقتال جلال الدين، وكانت غزنة في مرمى أهدافه.

معركة بروان والنصر التاريخي :

بدأت طلائع جيش المغول تزحف نحو غزنة للاستيلاء عليها والقضاء على السلطان الجديد قبل أن تشتد شوكته، ولكن جلال الدين فاجأ المغول بأول هزيمة لم تكن في حسبانهم حين هجم على جمع من المغول في حصارهم لقلعة واليان في أفغانستان، وتشير لها بعض المصادر بقلعة كابول، فقضى عليهم وقتلهم شر قتلة، ونقل فلول الناجين من المغول الخبر إلى چنگيز خان الذي بدوره قرر أن يرسل جيشًا إلى جلال الدين لينهي أمره ، وما منع جلال الدين عن المغول الفارين إلا هدمهم لسد في المنطقة فحال الماء بينه وبينهم. وبالفعل أرسل چنگيز خان جيشًا ضخمًا بقيادة صهره قوتوقو نويان (شيكي قوتوقو)، والتقى الجيشان في "بروان" ويقال في منطقة بجوار مدينة غزنة تدعى بلق، وهنا في هذه المعركة ظهرت قدرات جلال الدين القيادية واكتشف المغول كيف أن مقابلهم رجل حرب وحنكة، الذي كان في قلب الجيش وعلى ميمنته أمين الملك (والد زوجته) وعلى ميسرة الجيش سيف الدين بغراق الذي يرجع بعض المؤرخين النصر لبراعته وحنكته أيضًا في هذه المعركة.

ولم تنطل على جلال الدين حيل المغول ولم يزل يمعن فيهم قتلًا وأسرًا طيلة ثلاثة أيام، فألحق بهم هزيمة كبيرة في عام ٦١٨هـ(١٢٢١م)، ومن شدة فرح جنود جلال الدين بهذا النصر قاموا يثقبون آذان المغول بالأوتاد انتقامًا لجرائمهم الفظيعة في بلاد المسلمين. ولم يكن مجرد نصر بل سببًا كبيرًا في

استعادة الثقة بالنفس والانطلاق بقوة وعزم أكبر، كانا كافيين لهدم الفزع الذي ترسخ في قلوب الناس في كل مكان عند ذكر جيش المغول الذي لا يهزم.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي ينهزم فيها جيش المغول الكبير في بلاد المسلمين وإن كان قد سبقها انتصارات أخرى على طلائع وجيوش المغول الأصغر في مواقع مختلفة على يد جلال الدين منها التي أباد فيها جند المغول إبادة تامة. فكان لذلك أثر عظيم في نفسه استرد به ثقته .

هزيمة جلال الدين أمام المغول وفراره إلى الهند:

رغم أن النصر على المغول تسبب في استبشار كبير لدى المسلمين في كافة العالم الإسلامي، وفتح باب أمل كبير لهم بعدما ذاقوه من ويلات وهزائم وما سمعوه من فظائع ومجازر، إلا أن سنة الله في التنازع والفشل تحققت من جديد مع الخوارزميين؛ فبدل الاستفادة من فضل النصر تحطم كل إنجاز بتنازع قادة الجيش على تقاسم الغنيمة، ولم يتمكن جلال الدين من حسم النزاع فانسحب بعض القادة بقسم كبير من الجيش الخوارزمي بلا مبالاة بالعواقب ولا مناشدات السلطان، ويقال أن أبرزهم هو سيف الدين بغراق الذي اتجه إلى سهل يقع غربي نهر السند حين علم بقدوم المغول بقيادة چنگيز خان إلى إقليم غزنة؛ للانتقام من جلال الدين؛ والثأر لهزيمة جيشه على يديه، فضعف جيش المسلمين وتفككت وحدته، وتمكن المغول الذين كانوا يراقبون المشهد من الانقضاض عليهم فرادى فأنهوهم بسهولة بعد تفرقهم إلا من نجا منهم. وذلك من تداعيات العصبية بين القادة وضعف الإخلاص وافتقاد الحكمة في أصعب النوازل التي عاشها المسلمون .

معركة نهر السند :

لم يكن أمام جلال الدين من حل بعد انهيار جيشه إلا الانسحاب إلى سهل يقع غربي نهر السند أمام أخبار تقدم المغول بقيادة جنكيزخان نحوه للانتقام من هزيمته على يديه، وفي هذه الأثناء عمل السلطان على جمع السفن للإبحار في نهر السند مع جنوده باتجاه الهند لعله يجد فيها مأمنه، لكن خبر تقدم طلائع چنگيز خان اضطره إلى خوض معركة مفاجئة لم تكن في الحسبان، فحمل جلال الدين بنفسه على الجيش المغولي حملة تتفجر قوة أردتهم بين قتيل وفار بنفسه، لم يكن يتوقعها چنگيز خان الذي انبهر بشجاعة جلال الدين، فراح يتقدم بكل ثقله نحو نهر السند لتجري بعد ذلك فصول حرب عظيمة قد سطر التاريخ الصفحات في شرح هذه الموقعة الضروس ولهجت ألسنة المؤرخين بالشجاعة التي أبداها جلال الدين خوارزم شاه وچنگيز خان في مواجهة بعضهما البعض في عام ٦١٨هـ (١٢٢١م).

ولشدة هول المواجهة قيل عنها:

إن كل ما مضى من الحروب كان لعبًا بالنسبة إلى هذا القتال. بل من شدة حنق چنگيز خان على جلال الدين وعجزه عن قتله أو أسره، عمد إلى قتل ابن السلطان الذي وقع في الأسر ولم يتجاوز عمره ٨ سنوات، فقتله بيديه، مما يعكس شدة القهر التي أوصله لها ثبات جلال الدين.

وتتحدث بعض الروايات إلى أن هذه المعركة استمرت مدة ثلاثة أيام لحقت فيها خسائر جسيمة بالفريقين رغم عدم تكافؤ القوتين.

وفي هذه الأثناء مع اشتداد الضرب والقتل سمع جلال الدين صيحات والدته وأم ولده وحريمه يصحن بأعلى صوتهن: "بالله عليك اقتلنا وخلّصنا من الأسر"، فأمر بإغراقهن، فأغرقن فكان مشهدًا من أحزن مشاهد الحزن في

تاريخ الخوارزميين، عندما يضطر الرجل الغيور أن يختار بين موت أحبائه أو أسرهم فيرى هلاكهم بعينيه. واستولى چنگيز خان على غزنة.

لقد كانت قوة المغول أكبر بكثير وأساليبهم أفتك، وعاين جلال الدين ذلك بنفسه وأدرك استحالة هزيمتهم في مثل ظرفه، فلم يجد من بد هذه المرة إلا الفرار فقذف بنفسه في النهر بفرسه من على ارتفاع ٢٠ ذراعًا في مشهد مهيب، وسبح بسلاحه مقاومًا طغيان الماء وتبعه ما بقي من رجاله وعبروا النهر إلى الضفة الأخرى. وقال المؤرخون: أن الجواد الذي خرج من فيضان طاغ ودوامة عميقة حاملًا السلطان ظل يرافقه في كل مكان حتى فتح تفليس. ثم أحاله على التقاعد. وأمام هذا المشهد البطولي كتب الجويني يصف ردة فعل چنگيز خان الذي أدهشه المنظر؛ فوضع أصابعه بين أسنانه متعجبًا، وقال لأولاده بين عسكره الذين أخذتهم الدهشة: هذا الشبل من ذاك الأسد، وقد نجا جلال الدين ووصل سالمًا للضفة الأخرى.

والتقى جلال الدين بعسكره ممن نجح في اجتياز النهر، أما من فشل فكان مصيره القتل بسيوف المغول الذين أمعنوا قتلًا وأسرًا في أفراد عائلة جلال الدين فلم يرحموا حتى الرضع. ومع أن جلال الدين بعد مغادرته الجزيرة التي توفي فيها والده قد حقق هدفه باسترجاع نفوذ واسع في ظرف قياسي؛ فأخذ كلا من كرمان وفارس والعراق وآذربايجان وهاجم نواحي القفقاز وفتح أجزاء من غرب آسيا الصغرى وأخضع ملوك تلك الحدود، حتى وقعت الحرب الكبيرة مع المغول، لكن حكم السنوات العشر لجلال الدين وهو يبسط يده على كل هذه المناطق اختلف كثيرًا مع حكمه وهو يواجه شوكة العدوان المغولي الهائل. ولم يسمح چنگيز خان بملاحقة جلال الدين في الماء. واكتفى بما حققه من نصر ولكنه صب جم غضبه على بلاد المسلمين،

فضاعف دماره وشهد المسلمون الويلات، خاصة مدينة غَزنة الحصينة التي شهدت نصر المسلمين على المغول.

وصل السلطان جلال الدين إلى الهند برفقة أربعة آلاف من جنده الذين نجحوا في الفرار معه، ولكنهم وصلوا في حالة مزرية للغاية. ورغم أن جلال الدين أضحى شريدًا بلا عتاد ولا عدة ولا موطن إلا أنه كسب من نصره على المغول في حرب بروان انبعاث الشجاعة ضد المعتدين المغول فتبعها ثورات في هرات ومرو من العصيان عليهم طمعًا في تحقيق نصر كنصر جلال الدين، وهاجت الكثير من المدن الإسلامية المحتلة من المغول الذين اضطروا إلى كف أيديهم عن حصار عدة قلاع في ذلك الوقت، فكان أقل بركاتها أن تسببت في الاضطراب.

واختلفت الروايات بشأن ما عاشه جلال الدين وجنوده في الهند، فبعض الروايات تشير إلى أنهم في طريقهم للبحث عن مأوى لهم أغاروا على بعض البلاد ونهبوها، وفرضوا على أهلها الإتاوات التي سمحت لهم بالاستقرار في الهند ثلاث سنوات(٦١٨-٦٢١هـ)، انشغل خلالها جلال الدين بجمع قواته التي تفرقت في الأمصار، وانضم إليه كثير من القادة الخوارزميين وآلاف من المتطوعين الراغبين في الدفاع عن الإسلام، ونجح في مهاجمة بعض الأقاليم الهندية الواقعة في حوض نهر السند وغنم منها غنائم كثيرة وأخضعها لسلطانه، كما انضم إليه معارضو حكام الهند. لكن غلبه شوق العودة إلى بلاده، فكانت مرحلة الهند مرحلة نجاة من المغول وجمع لهم .

عودة جلال الدين من بلاد الهند وجهاده ضد المغول :

في الواقع لم يكن جلال الدين يطمع في حكم الهند بل بقي فيها يتحين الفرصة للانتقام من المغول فكانت الفرصة مواتية تمامًا بعد رجوع چنگيز خان سنة ٦٢١هـ (١٢٢٤م) إلى منغوليا وذلك لقناعته أن جلال الدين لن يرجع، فانسحبت جيوشه الرئيسية من أقاليم الدولة الخوارزمية إلى العاصمة المغولية قراقورم. وفي هذه الأثناء كان غياث الدين أخو السلطان جلال الدين يراقب الأوضاع وينتظر الانفراجة للعودة من جديد، وبالفعل نجح في استرجاع بعض الأقاليم وفشل في استعادة أقاليم ما وراء النهر.

ولضعف خبرته وسوء قيادته، عاشت الأقاليم خلال حكمه الاضطراب والفوضى، فلما عزم السلطان جلال الدين على مغادرة الهند، زين له قادته انتزاع السلطة من يد أخيه "غياث الدين"؛ لأنه الخليفة الشرعي لأبيه، فاستجاب لرغبتهم، وعبر نهر السند عام٦٢٢هـ/١٢٢٥م، وأسرع إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية الواقعة تحت سيطرة أخيه فاستولى على غزنة وكرمان، ثم نجح بالحيلة في هزيمة أخيه واسترداد ما كان تحت يديه من المدن والأقاليم، وتوافد عليه قادة الدولة الخوارزمية الذين كانوا تحت إمرة أخيه، وأعلنوا تبعيتهم له، ومبايعته سلطانًا على الدولة الخوارزمية، وحصلت وحشة بينه وبين أخيه لكنها انتهت بالمصالحة. وامتد سلطانه على أقاليم خوارزم وغزنة وكرمان وفارس وخراسان ومازندران .

التوجه إلى خوزستان وفتح تبريز :

اتجه جلال الدين إلى خوزستان بعد استقرار أوضاع العراق العجم (الواقعة شرق عراق العرب بما في ذلك مدن مثل أصفهان والري وقزوين وكرمنشاه) فحاصر مدينة تُستَر في مطلع عام٦٢٢هـ(١٢٢٥م) وكانت تحت

يد الأمير مظفر الدين مملوك الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ففشل في الاستيلاء عليها، ثم أرسل جزء من جيشه إلى البصرة وجزء آخر إلى بعقوبا.
واستمر جلال الدين في التمدد حتى بلغ ذروة قوته في عام ٦٢٣هـ(١٢٢٦م) بعد أن ضم ملك عراق العجم وفارس وكرمان وآذربايجان وتبريز وتفليس إلى سلطانه، بعضها لم تكلفه عناء القتال فاستعمل السياسة والحيلة وبعضها كلفته الحروب الضارية كما كان حال تفليس وحربه الشرسة مع الكرج .
وساعده في ذلك موت چنگيز خان سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) وانشغال المغول في أمور خليفته. كما ساعده أيضًا استقرار الملك في يده دون منازعة.

علاقة جلال الدين بالخلافة العباسية :

الغريب في الأمر ان السلطان منكبرتي كان يتهم الخليفة العباسي الناصر لدين الله بمكاتبة المغول وأثارتهم ضد أبيه علاء محمد بقوله (كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى بلاد ووجدنا كتبه إلى الخطا وتواقيعه إليهم بالبلاد والخيل والخلع، أما ابن الأثير قد صرح بهذه التهمة عند وفاة الخليفة الناصر وذلك نحو٦٢٢هـ، وبهذا توجه جلال الدين إلى العراق فقصد الأحواز وحاصرها، ولكنه لم يستطيع فتحها ثم توجه شمالا ونزل في بقعوبة قرب بغداد فاستجمع الناصر قوته وسحب جيوشه من البصرة وما حولها، وبدا بالاستعداد للحصار وذلك بتوفير السلاح والنفط، ولكن جلال الدين غادر المنطقة بعد أن نهب وسلب وأحدث الفوضى[1]. وقد انتهى الأمر بينهما بالصلح، وبعد عودة السلام بين العباسيين والخوارزميين، توجه جلال الدين إلى همدان عن طريق كردستان، ثم ناحية آذربايجان. وكانت تحت حكم الأتابك أزبك بن الأتابك محمد جهان بهلوان الذي تزوج من ابنة

---

(١) خالد موسى حسيني وآخر، الدولة الخوارزمية (دراسة في أحوالها السياسية)، ص١١

طغرل الثالث آخر ملك سلجوقي، وكان رجلًا يقضي وقته في الشراب فلما عرف أن جلال الدين وصل تبريز هرب إلى گنجه تاركًا المدينة في يد زوجته الملكة. فوصل جلال الدين إلى تبريز وحاصرها، فرأت الملكة بعد المشورة أن تسلمه المدينة بشرط ألا يصيبها وحاشيتها أذى، وتم الأمر كذلك. فقرأ الخطبة باسم الخليفة في المدينة .

السلطان جلال الدين والإسماعيلية :

كان حضور الباطنيين من فرقة الإسماعيلية في هذا الوقت متصلًا بحضورهم في واقع الدولة السلجوقية، وكان جلال الدين يدرك خطورتهم وشرهم على الإسلام، فبعد عودته من الهند ولى أورخان على نيسابور وأعمالها وكان وعده بذلك بالهند، وكان نائبه بها يتعرض لبلاد الإسماعيلية المتاخمة له بقهستان وغيرها بالنهب والقتل، وقال ابن الأثير:

إن السلطان بعد مقتل أورخان سار في العساكر إلى بلاد الإسماعيلية من ألموت إلى كردكوه فاكتسحها وخربها وانتقم منهم وكانوا بعد واقعته قد طمعوا في بلاد الإسلام فكف عاديتهم وقطع أطماعهم وعاد فبلغه أن طائفة من التتر بلغوا الدامغان قريبًا من الري، فسار إليهم وهزمهم وأثخن فيهم. ثم جاء الخبر بأن التتر متلاحقة لحربه فأقام في انتظارهم في الري.

وقد حاصر الخوارزميون في عام ٦٢٤هـ(١٢٢٧م) الإسماعيلية في قلعة أَلموت الشهيرة في رودبار والتي كانت مركز سلطانهم، واقتص منهم السلطان بحزم لجرائمهم واغتيالاتهم الغادرة. وبعد ذلك بسنة واحدة دخل جلال الدين أراضي أرمينيا وملك مدينة خلاط التابعة للملك الأشرف الأيوبي ، وذلك بعد حصار طويل. وسقطت جميع قلاع الحشاشين وقضي عليهم في الزحف المغولي في المنطقة .

علاقة السلطان جلال الدين بالدولة الايوبية :

بعد وفاة الملك العادل ٦١٥هـ وقع خلاف بين أبنائه الثلاثة وهم الكامل صاحب مصر والمعظم صاحب دمشق والأشرف موسى صاحب بلاد الجزيرة وخلاط وميافارقين، وقد ازداد هذا الخلاف عندما اتفق الملك الكامل والملك الاشرف على أخيهما المعظم عيسى، ولما علم المعظم بذلك أخذ يسعى للحصول على حليف يقف إلى جانبه ضد أخويه فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ومعه جماعة من الصوفية إلى السلطان جلال الدين، ولكي لا يثير شك أخوته بهذه المسالة تظاهر أن مهمة المرسل غير ذلك. وبعدها صارت علاقة كل من المعظم عيسى وجلال منكبرتي وثيقة جدا، فعندما استولى السلطان جلال الدين على آذربايجان سنة ٦٢٢هـ بعث إلى المعظم رسالة يضمن بها البقاء على الحلف فأجابه جلال الدين إلى طلبه ضد أخيه الأشرف صاحب ميافارقين ومن ثم زوج ابنته دار مرشد إلى جلال الدين، أما من ناحية جلال الدين فكان يرغب في استمالة المعظم إليه ضد الخليفة الناصر لغزو بغداد وذلك نحو ٦٢٢هـ، وقد كتب إلى المعظم يقول له (تحضر أنت ومن عاهدني واتفق معي حتى نقصد الخليفة فإنه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكفار إلى البلاد). ولكن المعظم امتنع من إجابة طلبه ومع ذلك ظلت العلاقة ودية بين الطرفين[١] .

حرب جلال الدين في أصفهان :

استنفر جلال الدين جيشه مع وقع خبر اقتراب المغول، فانطلق يجمع ما أمكنه من قوة للقائهم، لكنه كان قد استنزف في حروبه التوسعية، ومع ضعفه هذا، تمكن من إلحاق بعض الهزائم بالمغول؛ فقد قضى جنوده على

---

(١) خالد موسى حسيني وآخر، الدولة الخوارزمية (دراسة في أحوالها السياسية)، ص ١١– ١٢

كتائب المغول التي تسللت إلى جبال اللور في بختياري للإعداد لهجومها وحصار أصفهان، فطاردوهم في المضايق والمسالك وقضوا على الكثير منهم، وأسروا المئات منهم. ومما يذكر من بطولات جلال الدين في هذه المعركة التي وقعت في عام ٦٢٥هـ(١٢٢٧م) أنه انقطع عن عساكره فالتف المغول من حوله من كل ناحية وسدوا عنه طريق الخلاص، ولم يبق إلا قلة قليلة من حرسه، فحمل حملة على المغول أذهلت من حوله، فكان يسقط الواحد من صهوة جواده ويمزّق الآخر من معدته ويطيح برقبة الثالث ويجرح المهاجمين إلى أن فتح ثغرة في الدائرة لنفسه ورفاقه وخرج من مضيق الموت. وتفرق جيش جلال الدين بعد هذه الحرب بين فارس وآذربايجان وكرمان وأصفهان، واختفى جلال الدين ثمانية أيام لم يظهر خبر عنه حتى هم العامة بمد أيديهم على ماله لكن قاض أصفهان رفض بشدة وطلب مهلة حتى عيد الفطر كي يتأكد من مقتله، ولكن ما أن حان موعد صلاة العيد حتى وصلتهم بشارة وصول السلطان سالمًا، فاستقبلوه بحفاوة وصلى معهم.

المواجهة مع المغول مرة أخرى :

نجح جلال الدين في هزيمة قوتين مغوليتين قرب أصفهان في عام ٦٢٥هـ /١٢٢٨م. لكنه لم ينجح في وقف الهجمة المغولية التي بعثها "أوكتاي" خاقان المغول الجديد، وكان قد أرسل جيشا من٣٠ ألف مقاتل لشن حرب شاملة على "جلال الدين"، وعلى عكس ما كان ينتظر جلال الدين أن المغول سيقضون الشتاء قبل مهاجمته، فيسمح له ذلك بتجهيز نفسه لصدهم، فاجأه جيش المغول وهو في أضعف حال، لم يتمكن بعد من استجماع قوته بعد هزيمته الأخيرة وطول استنزاف فعبر الجيش المغولي نهر جيحون، ووصل بسرعة إلى الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية واستولى

على الري وهمدان وما بينهما، ووصل إلى آذربايجان عام ٦٢٨هـ/١٢٣١م، ولم يتمكن جلال الدين من مواجهة هذا السيل الجارف وفر إلى تبريز ثم إلى سهل موغان المجاور للساحل الغربي من بحر قزوين قبل أن يتمكن من جمع جيوشه، واستنجد بالخليفة العباسي وأمراء ديار بكر، ولكنهم تقاعسوا عن نصرته، وتركوه يلقى نهايته وحيدًا، فلما وصل إلى "آمد" في أعالي نهر دجلة لحق به المغول" وهزموه شر هزيمة" وقتلوا كثيرًا من جنده، واستولوا على ما بيده من سلاح، بينما واصل هو فراره من مدينة إلى أخرى والمغول يطاردونه فأظهر مهارات عجيبة في الخلاص منهم.

نهاية جلال الدين خوارزم شاه :

انتهت خطوات السلطان إلى ميافارقين، ولما وصل إلى قرية بالقرب في جبال كردستان بقي هائمًا على وجهه لا يدري أين يذهب، فلقيه رجل كردي من المنطقة فقصّ عليه جلال الدين خبره وأعلمه بمن يكون، وطلب مساعدته مقابل جزاء سخي، فاستجاب له الكردي وأخذه لبيته لكنه عندما خرج ليجمع الخيل والعدة لجلال الدين دخل على السلطان كردي آخر صاحب الأول، كان قد قُتل أخوه في معركة مع جيش الخوارزميين، فعرف السلطان وانقض عليه وقتله بحربة كانت في يده، لفظ معها آخر سلاطين الدولة الخوارزمية أنفاسه الأخيرة في شهر شوال من عام ٦٢٨هـ (١٢٣١م). وذكرت روايات أخرى لمقتله مع اختلاف في التفاصيل منها أن قاتليه كانوا لصوصًا من الأكراد. فكانت مدة سلطنته نحو اثنتي عشرة سنة، وبمقتله سقطت الدولة الخوارزمية للأبد أمام المغول الذين سيطروا على أراضيها،

وبدأت بعد ذلك مرحلة جديدة للغزو المغولي قادها هولاكو حفيد چنگيز خان، فسقطت على يديه بغداد وحلب ودمشق[١] .

أسباب انهيار الدولة الخوارزمية

إن أسباب سقوط الدولة الخوارزمية كثيرة، جامعها الابتعاد عن تحكيم شرع الله في النظم السياسية والمالية والاجتماعية والعسكرية والأخلاقية..الخ، والمعروف أن السبب في زوال الدولة الخوارزمية وجلب كارثة المغول على الأمة، هو خطأ ارتكبه السلطان علاء الدين خوارزم شاه وذلك أنه أمر بقتل التجار التتار الذين دخلوا بلاده لممارسة التجارة، ولما أرسل إليه چنگيز خان سفيراً يسأله عن سبب قتل التجار، قتله أيضاً، فاشتعل چنگيزخان غضباً، وقام بحملة هوجاء على مملكة خوارزم شاه ثم على عالم الإسلام كله .

ومن الملاحظ في دراسة أسباب سقوط الدول والحضارات بأنها لا تسقط بسبب واحد، بل تتجمع عدة أسباب لقيامها، وعدة أسباب لتدهورها وسقوطها ، وأهم هذه الأسباب :

١- فشل الخوارزميين في إيجاد تيار حضاري:

أخطأ الملوك الخوارزميون خطأ كبيرًا وذلك أنهم بذلوا كل قواهم في توسيع رقعة الملك ودعمه، ولم يهتموا بتبليغ رسالة الإسلام إلى ذلك القسم البشري الذي يعيش بجوار حدودهم، وبصرف النظر عن الدافع الديني والواجب الإسلامي، كان مُقتضى الحزم السياسي وبعد النظر أن يعنوا

---

(١) انظر: د.عبد السلام عبد العزيز فهمي: الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م، ص٧٥-٩١، https://tipyan.com/jalal-ad-din-khwarizm-shah

بإيجاد الإنسجام العقائدي مع هذه الدنيا الإنسانية الواسعة، ويقيموا بذلك حولهم سياجاً، يحفظهم عن ذلك الخطر الذي لم يواجههم وحدهم فحسب، بل اكتسح المسلمين كلهم، ولم يستطع الخوارزميون أن يقدموا مشروعاً حضارياً يجدد حيوية الدولة ويرسم أهدافها، وإنما دخلوا في أنفاق مظلمة انتهت بزوال دولتهم. لقد اتسعت الأرض التي يقومون فوقها، ولم يستطيعوا تحويل المناوئين لهم إلى عاملين معهم في مجال الدعوة ونشر الإسلام ودعوة الأمم وتعليمها وتربيتها على الإسلام الصحيح وتعليم الشعوب دين الله سواء باللغة العربية وبترجمة حقيقة الإسلام للغات الشعوب المسلمة .

٢- كراهية الشعب لنظام الحكم وعدم ولائه:

لم يستطع سلاطين الخوارزميين توحيد شتات العالم الإسلامي في المشرق، بل كان حكمهم بغيضاً في جميع أقاليم شرق العالم الإسلامي، ولم يحظ حكمهم بالقبول في بلاد الجبل، ولا بلاد خراسان، وأقاليم مقاطعاته وأصقاع مدنه وتوابعها، كما لم يحظ الاحترام في بلاد الغور، ولا في بلاد أفغانستان، وكان مكروهاً مبغوضاً في ما وراء النهر، فلم ينسوا مجزرة أهالي سمرقند، التي بلغ عدد المذبوحين قرابة مائتي ألف إنسان، كما لم يتعاون السكان بجميع فئاتهم وطبقاتهم مع السلطان الخوارزمي ولا حتى مد يد الغوث له، أثناء هروبه ومطاردة المغول له، ولم يحظ بعون أحد، لا من جنده، ورجال عسكره، وحمايتهم في المدن التي مر بها، ولا من إدارات حكومته ومواطني تلك المدن وأقاليمها، كانوا ينظرون إليه ويدلون المغول على الطريق التي سلكها، والسبل التي سار إليها محاولة منهم بمساعدة المغول لاصطياده، فشعبه لم يكن راضياً عنه، وعلماء دولته يكنون له كرهاً

عميقاً، وعلى اختلاف مذاهبهم شافعية أم أحناف كان يسجنهم ثم يقتلهم ثم يلقي بهم في ماء جيحون.

٣- النزاع الداخلي في الأسرة الخوارزمية:

كان الاختلاق سبباً في ضياع الدولة الخوارزمية وهلاكها وإندثارها، وكان لهذا الاختلاف الذي وقع فيه البيت الخوارزمي أسبابه منها: ضعف الوازع الديني والأنانية وحب الذات والتكالب على المصالح الدنيوية والتناحر من أجلها والحرص على السلطة والجاه والمنصب، فهذه الأسباب كانت وقوداً للمنازعات والخلافات التي وقعت بين أفراد البيت الخوارزمي فكانت من أكبر معاول الهدم وأسباب الضعف وتلاشي الدولة. لقد بدأ الخلاف المؤثر في الأسرة الخوارزمية بالصراع بين علاء الدين الخوارزمي ووالدته تركان خاتون التي كونت لها عصبية قوية من قوات عشيرتها حتى أصبح نفوذها في الدولة لا يقل عن نفوذ السلطان نفسه، من ذلك أنه كان إذا حدث حادث من جهة من جهات الدولة، أو عرضت مشكلة من المشاكل وصدر فيها حكمان متناقضان أحدهما من السلطان والآخر من تركان خاتون، نظر في تاريخ كل من الحكمين ونقض أحدثهما. وهذا ينافي تماماً ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون، ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة مما أضعف هيبة حكامها، وفضلاً عن ذلك فإن السلطان علاء الدين خوارزم شاه كان لا يخالف لأمه أمراً، لكونها أمه، وبسبب كثرة أمراء الدولة وحكامها الذين كانوا من عشيرتها. ومن ثم كانت هذه المرأة

الأنانية المتعطشة للدماء وأقربائها من الأتراك من الأسباب الرئيسية لفساد أمر خوارزم شاه وكثير من الخلل الذي أصاب دولته ناتجاً عن استبدادها.

٤- ضعف النظام الحربي الخوارزمي:

كانت نظم الخوارزميين الحربية وخططهم التي أعدوها للدفاع عن دولتهم قبيل الغزو المغولي من العوامل الرئيسية التي أدت إلى انتصار المغول، فقد كان الجيش الخوارزمي الذي اعتمد عليه علاء الدين يتكون من التركمان وقبائل قنقلي، أما التركمان فهم سلالة الأتراك الغز الذين أخضعوا فارس تحت زعامة السلاجقة، وأدى استيطانهم في هذا الجزء من العالم الإسلامي واختلاطهم بالعناصر الفارسية والعربية، إلى تغيير صفاتهم الجثمانية وعاداتهم ولغتهم، أما قبائل "قنقلي" فيرجع أصلهم إلى السهول الواقعة شمالي إقليم خوارزم وفي شمال شرقي بحر قزوين، وقد اندفعوا إلى أراضي الخوارزمية على أثر تصاهرهم مع سلاطين هذه الدولة، فقد تزوج السلطان علاء الدين تكش من تركان خاتون ابنة أحد زعماء هذه القبائل، وكان من أثر ذلك أن هاجر كثير من رجال هذه القبائل من أقرباء تركان خاتون وأفراد عشيرتها إلى أراضي الدولة الخوارزمية، ودخلوا في خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه، وخاصة بعد أن منحهم السلطان بعض الأقاليم ليحكموها باسمه، ومما لاشك أن قوة الخوارزميين قد تضاءلت أمام هذه الارستقراطية العسكرية ، وشعر الناس وكذلك السلطان بالحاجة إلى التحفظ في إشباع رغبات هؤلاء الجند الذين كانت محبتهم له مزعزعة الأركان، وطاعتهم له لا تنم عن الإخلاص، فلما شعروا بنوايا السلطان نحوهم عمدوا إلى إرهاب الأهالي المسالمين ونهب حوانيتهم، وتفنن هؤلاء الجند الغرباء في تعذيب

الأهالي، فاضطرب الأمن في البلاد واضطربت معه أحوال الدولة السياسية والاجتماعية. كان جنود الأتراك مصدر قلق واضطراب للدولة الخوارزمية فلم يهتموا كثيراً بالدفاع عن هذه الدولة، لإدراكهم أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير، كما كان ينقص الجيش الخوارزمي النظام والطاعة للقادة والقدرة على تحمل الصعاب، وتلك الصفات كانت من أهم مميزات الجيش المغولي، وكذلك فقدان علاء الدين خوارزم شاه لثقة شعبه، فلم يشاركوه بقلوبهم في الاستعداد لمواجهة هذا الخطر الداهم، ولم يسارعوا للانضمام تحت لوائه، ولم يساعدوه في جمع المال اللازم للإنفاق على جنوده، وأما ناحية الخطة الحربية التي اتبعها علاء الدين، فكانت خطة غير موفقة، فبدلاً من أن يجمع جيشاً واحداً يواجه به المغول نراه يوزع قواته على المدن المختلفة في بلاد ما وراء النهر، ونراه أيضاً يرسل دعاته إلى أقاليم الدولة الخوارزمية المختلفة لجباية الضرائب منها، معلناً أنه سيصنع في كل إقليم جيشاً يعادل ما يجمع من هذا الإقليم من أموال، وهكذا نرى تفرق الجيش الخوارزمي بين المدن الخوارزمية المختلفة، مما سهل على المغول القضاء على المدن واحدة تلو أخرى، ولو أن علاء الدين جمع جيوشه وقابل بها المغول دفعة واحدة، لربما سهل عليه القضاء عليهم .

٥- حب الدنيا وكراهية الموت:

كان حب الدنيا مهيمناً على القيادة والشعب في ذلك الوقت، وقد دبت الهزيمة النفسية في قلوب المسلمين، وتعلقوا بدنياهم الذليلة تعلقاً لا يُفهم، ورضوا أن يبقوا في قراهم ومدنهم ينتظرون الموت على أيدي الفرق المغولية،

لقد سيطر حب الدنيا على القلوب، وكره المسلمون الموت في سبيل الله، فأصبحوا كالغثاء الذي يحمله السيل، ونزع الله عز وجل مهابة المسلمين من قلوب التتار، فما عادوا يكترثون بالأعداد الغفيرة وألقى في قلوب المسلمين الوهن والضعف والخور حتى كانت أقدام المائة من المسلمين لا تقوى على حملهم إذا واجهوا تترياً واحداً. كانت غارة التتار فتنة عظيمة، ومحنة كبيرة، هزت العالم الإسلامي بشدة، واستولى الرعب والخوف على العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغلب على الناس اليأس والتشاؤم، فكانوا يعتبرون التتار بلاءً سماوياً ومقاومتهم مستحيلة. فكل بلاد أو دولة توجهوا إليها عرف أنها أبيدت وخربت، ولم يبق فيها شيء من مقدسات المسلمين إلا وانتهكت حرمتها، ولا شك أن العالم الإسلامي كله ولا سيما الجزء الشرقي منه وقع تحت هذه الفتنة العمياء عن بكرة أبيه.

٦- ترك الاتحاد والوقوع في ظلم العباد:

أرشدتنا التعاليم الشرعية إلى وحدة الصف واتحاد الكلمة والرجوع إلى شرعه وتحكيم الكتاب والسنة فيما بيننا، قال تعالى: "وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب" الشورى، آية ١٠، فقد عطل شرع الله تعالى، وترتب على ذلك الفرقة والتشتت والتشرذم بين ممالك المسلمين، ولم يستطع المسلمون أن يعملوا بقوله تعالى: "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين" الأنفال،آية٤٦، فجعل الله عز وجل الفشل قريناً للتنازع والمسلمون كانوا في تنازع مستمر، وخلاف دائم، وعندما كانت تحدث هدنة في الحرب مع التتار كان المسلمون يغيرون على بعضهم، ويأسرون ويقتلون بعضهم، ومن كانت هذه صفتهم فلا يكتب لهم

النصر أبداً، فالمسلمون كانوا في تلك الآونة يهلك بعضهم بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً، لقد قطع محمد الخوارزمي كل العلاقات بينه وبين من حوله من الأقطار الإسلامية، لم يتعاون معها أبداً، بل على العكس قاتلها الواحدة تلو الأخرى، ولا شك أن هذا خلف أحقاداً كبيرة في قلوب سكان هذه البلاد، وهذا بخلاف ما فعله السلطان علاء الدين، فقد كان حاكماً بقوته لا يحبه الناس، فلما احتاج إلى الناس لم يجدهم، ولم تكن الصراعات بين الخلافة العباسية والدولة الخوارزمية فقط، بل قامت الدولة الخوارزمية نفسها على صراعات داخلية، ومؤامرات عديدة، وانعكس ذلك على الصفوف، وكانت النتيجة الهزيمة الساحقة أمام المغول، وأما جلال الدين عندما دخل أخلاط التابعة للأيوبيين عام ٦٢٧هـ أعمل السيف في أهلها وفعل في ذلك فعل التتار، فقتل كل من وجد في البلد، وسبي عسكره الحريم، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكفرة، ونهبت الأموال، وفعل فعل التتار، فلا جرم أن الله سبحانه عاقبه ببغيه ولم يمهله، كان الأجدر به عدم الدخول في صراع مع القوى الإسلامية في الشام وغيرها، وأن يعمل على لملمة الدولة ويبني جيشه على أسس عقائدية وأخلاقية، لقد افتقد جلال الدين الحكمة والبعد السياسي ومكارم الأخلاق، التي يستطيع أن يكسب بها الأبطال والقادة والملوك، لقد ساهمت المظالم التي ارتكبها الخوارزميون في زوال دولتهم من الوجود.

٧- أنانية محمد علاء الدين الخوارزمي وهزيمته النفسية:

ظهرت أنانية محمد علاء الدين في إهتمامه بتأمين نفسه وأسرته ومقربيه وتهاونه في تأمين شعبه، وحافظ بشدة على كنوزه وكنوز آبائه، وأهمل الحفاظ على مقدرات وأملاك شعبه، وعادة من يسقط أمثال هؤلاء

القادة أمام المحن والشدائد والفتن التي تعصف بالأمم والشعوب والدول، وتنهزم الشعوب التي تقبل بهذه الأوضاع المغلوبة دون إصلاح، لقد فر السلطان محمد علاء الدين من نيسابور وطارده التتار حتى وصل إلى جزيرة في بحر قزوين، ونجحت خطته في الفرار، ورضي بالبقاء في تلك القلعة مع الفقر الشديد والحياة الصعبة وهو الملك الذي ملك بلاداً شاسعة وأموالاً باهظة ولكن رضي بذلك لينجو بنفسه، وما هي إلا أيام حتى مات في هذه الجزيرة وحيداً شريداً فقيراً، وكان الأولى به أن يموت في ميدان الجهاد رافع الرأس ثابت الجأش، مقبلاً لا مدبراً،ولكنها الأنانية البغيضة والهزيمة النفسية التي أصيب بها، لقد دب الرعب والخوف في قلبه من استبسال جنود المغول وحنكتهم في الحرب، وبعد عودته من سمرقند أخذ يشيد مراراً وتكراراً بثبات المغول في القتال ومعرفتهم بفنون الرماية والقتال بالسيف، وهو ما أخافه لدرجة أعجزته عن الصمود أمامهم، بل أن في فراره كان يحذر الأهالي من المغول ويدعوهم للتسليم لهم وطاعتهم، وكان لخوفه وفراره تأثير سيء على الجنود وأهالي البلاد، وأدى إلى انفراط عقد الجيش وضعف روح الدفاع والقتال والجهاد عند الأهالي، فهروب السلطان من الميدان من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

٨- شخصية جلال الدين خوارزم شاه:

إن جلال الدين الذي ركز جهوده للانتقام من حكام البلاد المحيطة بدولته وعلى رأسهم الخليفة العباسي بسبب عدواتهم لأبيهم، لم يكن في وسعه أن يعمل على توثيق روابط الود والإخاء بينه وبين هؤلاء الجيران، ولذلك قضى فترة من الوقت أنهك فيها القوى الإسلامية وأضعفها، كما أثار

نفور المسلمين منه وسخطهم عليه، فانفضوا من حوله، كما لم يحسب حساباً للمغول، الذين انصروفوا عنه وعن العالم الإسلامي إلى حين، بسبب تفرغهم لمشاكلهم الداخلية آنذاك، وكان الواجب عليه أن يستفيد من أخطاء أبيه وهفواته السياسية، فيكسب رضاء جيرانه في الخارج، ويكون حلفاً إسلامياً يقف به في وجه المغول، وأن يكسب أيضاً محبة رعيته حتى يضمن ولاء الأهالي حال ظهور الخطر المغولي من جديد، ولكن على العكس من ذلك نراه لا يترك قوة من القوى الموجودة في ذلك الوقت إلا ناصبها العداء، خارج دولته وداخلها، ففي الخارج اعتدى على أملاك الخليفة، وأملاك الأمراء المسلمين في بلاد ما بين النهرين، كما غزا آذربايجان وجورجيا، وناصب طائفة الإسماعيلية العداء، فألبت عليه أعداءه وشجعت المغول على إعادة غزو أراضي الدولة الخوارزمية. وأما في الداخل فنراه يحاول أن يكون الحاكم المستبد في دولته، فانفض عنه أخوه غياث الدين تتبعه قوة كبيرة من رجال جيشه في الوقت الذي كان يتحتم عليه الاستفادة بمجهود كل رجل في دولته، كذلك نرى كبار رجال الدولة ينفضون من حوله ويحيطونه بشبكة من الدسائس والمؤامرات، ويشعلون عليه نيران الثورة في البلاد الخاضعة، كما حدث في آذربايجان، ولم يهتم جلال الدين بتكوين جيش يستطيع أن يواجه به العدو المغولي إلا عندما ظهر المغول فجأة في الميدان فأخذوه على حين غرة قبل أن يتمكن من إصلاح شئونه الداخلية والخارجية، فكانت النتيجة أن اكتسح المغول الدولة الخوارزمية من جديد سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م، وزالت هذه الدولة بزوال آخر شخصية خوارزمية من سلالة أنوشتگين.

٩- قصر نظر الخليفة العباسي الناصر لدين الله:

استطاع غياث الدين شقيق جلال الدين امتلاك منطقة شمال إيران نتيجة الفراغ النسبي الذي تركه التتار في هذه المنطقة وسيطر على مدن الري وأصفهان، ووصلت سيطرته إلى إقليم كرمان جنوب إيران، وأصبحت سيطرته على مناطق شمال وغرب وجنوب إيران، أما المنطقة الشرقية والشمالية الشرقية من إيران وهي إقليم خراسان بكامله، فكانت تحت السيطرة التترية، وبذلك يصبح غياث الدين بمثابة حائط صد بين التتار والخلافة العباسية، وكان ذلك في الفترة التي انقطع فيها جلال الدين في الهند. كان المتوقع من الخليفة العباسي الناصر لدين الله آنذاك أن يساعد غياث الدين في تثبيت سيطرته على هذه المناطق، وأن يتناسى الخلافات القديمة بينه وبين مملكة خوارزم، لأنهم كانوا يواجهون عدواً مشتركاً وهو المغول، ذلك لأن غياث الدين يقف مباشرة في مواجهة التتار، ويعد البوابة الشرقية للخلافة العباسية في بغداد وإن نجح التتار في قهره فستكون المرحلة الثانية هي الخلافة العباسية، لكن الخليفة العباسي كان يعاني من قصر النظر، ولم ينس خلافاته القديمة مع المملكة الخوارزمية، وعمل على إذكاء وإشعال فتنة داخلية بين غياث الدين وخاله (ايغان طائسي)، فراسله ورغّبه في الانقلاب على غياث الدين، وبذلك يضمن الخليفة ولاء ايغان طائسي له، ويبعد غياث الدين عن الحكم، ونجح في مؤامرته واندلعت الحرب بين غياث وخاله ودارت مجزرة بين المسلمين، وسقطت الأعداد الغفيرة من المسلمين قتلى بسيوف أخوانهم، وانهزم ايغان طائسي خال غياث الدين، وقتل من فريقه عدد ضخم، وأسر الباقون، وفر هو ومن بقي معه إلى آذربايجان . لم

يقم الخليفة العباسي بواجبه في دعم المسلمين ضد المغول، بل كان معول هدم لمن تصدى للمقاومة، فكان خصماً للخوارزميين ولم يتصدى معهم للمغول، بل عمل على إثارة الفتن داخل صفوف المسلمين، فكان ذلك من أسباب زوال الدولة الخوارزمية .

١٠- غياب العلماء:

في تحقيق الأمة للانتصارات الكبرى نجد مكانة العلماء والفقهاء لدى الحكام وفي وجدان الشعوب واضحة المعالم، بل نلاحظ الكتابات عن أهمية الجهاد وفضائله، وسيرة الرسول في الغزوات وتاريخ صدر الإسلام وانتصارات الأمة على أعدائها، ويتحرك الخطباء والعلماء والفقهاء في أوساط الناس، ويخرجون مع الجند في المعارك ويشاركون بأنفسهم في قتال الأعداء، في الدولة الخوارزمية لا مكانة للعلماء والفقهاء، بل عطلوا عن دورهم، فهذا من أسباب زوال الدولة الخوارزمية.

١١- المشروع المغولي:

أخذ چنگيزخان قائد المشروع المغولي بأسباب النجاح المادية والقانونية، من قيادة متزنة ووضوح في الهدف، وإعداد الأفراد ومحاربة أسباب الفرقة داخل الشعوب المغولية والأخذ بأصول الاجتماع والاتحاد وتقسيم الأدوار، والتخطيط السليم، والادارة الناجحة، والتنظيم المحكم وغيرها من الأسباب، وبالإضافة إلى تدهور أوضاع البلاد الإسلامية لتركهم شريعة ربهم ويمكن إجمال نجاح المشروع المغولي على الدولة الخوارزمية في النقاط التالية:

١- حنكة چنگيز خان وثباته وصبره وتواضعه.

٢- إطلاعه الكامل على أوضاع ممالك خوارزم شاه، واستغلال معلومات التجار المسلمين والمترجمين والعارضين بالمسالك والطرق.

٣- الياسا الجنكيزية وأحكامها الصارمة في حفظ النظام بين المغول وإخضاعهم جميعاً لأمر واحد.

٤- الاتفاق التام بين قادته وأبنائه، فلم يكن لأي منهم رأي بعد رأي چنگيزخان، وكانوا جميعاً أدوات لتنفيذ أهدافه، ولم تساور أياً منهم فكرة الاستقلال

٥- وحدة اللغة والعادات والتقاليد ووحدة الهدف بين جنود چنگيز خان وهو ما كان الخوارزميون يفتقرون إليه .

٦- قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول مقارنة بالخوارزميين، فقد اهتموا بالكيف لا بالكم، فالسلطة العليا كانت في الخان الأعظم فهو المرجع الأخير في كل صغيرة وكبيرة، ويشرف على تنظيم الجيش وإعداده ورسم الخطط والمواقع الحربية واختيار الأوقات المناسبة لها وكان الجيش المغولي منظماً أحسن تنظيم، فكان هذا من أهم أسباب سقوط الدولة الخوارزمية[١].

(١) انظر: د.علي محمد الصَّلاَّبِي: المغول (التتار) بين الانتشار والإنكسار، ص ١٥٠- ١٧٠

ثانياً

مظاهر الحضارة في العصر الخوارزمي

أولًا : النظام الاداري في الدولة الخوارزمية

أ- السلطنة :

تلقب حكام الدولة الخوارزمية بادئ الأمر بلقب خوارزم شاه، ومعناه ملك خوارزم، وأول من تلقب بهذا اللقب هو قطب الدين محمد بن أنوشتگين عام٤٩٠هـ بعد توسع الدولة الخوارزمية واحتلالها مكانة بين الدول الكبرى، واستيلائها على ممتلكات الدولة السلجوقية، ولذا صار هذا اللقب لا يتلاءم ومكانة دولتهم. لذلك خلع علاء الدين خوارزم شاه على نفسه لقب السلطان بعد أن زال ملك السلاجقة (٥٩٠هـ)، وضرب اسم السلطان على السكة. وبعد أن بلغت الدولة الخوارزمية أوج عظمتها في عصر علاء الدين خوارزم شاه أطلق على نفسه لقب الإسكندر، أما سلطتهم على الدولة فكانت غير محدودة، فكانوا يعينون ويعزلون الوزراء وحكام الولايات والقضاة وأصحاب المناصب العسكرية العالية، وكانوا يعلنون الحرب ويقودون الجيوش، ويأمرون بإقطاع الأراضي ووضع الضرائب وإزالتها، ورغم أن صلاحياتهم كانت واسعة إلا أنهم كانوا يستشيرون أصحاب الدراية في الأمور الهامة.

أما نظام الحكم لدى الخوارزميين فهو وراثي، حيث جرت العادة أن يعين السلطان ولي العهد في حياته، وقد حرص السلاطين على توريث السلطنة للأكبر من أبنائهم، لكن معظمهم كان يرشح ابنه الأصغر بسبب تدخل النساء، وتكرر الأمر في عهد علاء الدين الذي عهد لابنه "ازلاغ شاه" متخطيًا ابنه الأكبر جلال الدين مدفوعًا بتأثيرات أمه تركان خاتون ونفوذها.

ب- الولاة :

كان كل سلطان خوارزمي يعين نواب عنه في المدن والأقاليم التابعة له يقوم بإدارتها وكان هؤلاء يقدمون المال لخزينة السلطان والقوات العسكرية

المناسبة ، ولم تكن السلطة الممنوحة لهم كاملة بل كان السلطان يتدخل في شؤونهم اذا اقتضى الأمر ويعاقبهم اذا ظهر منهم عملا لا يرضاه ، وربما بلغت عقوبته لهم حد القتل اذا ما استغلوا مناصبهم لأغراضهم الشخصية .

ج- الوزارة:

ظهر منصب الوزارة لأول مرة لدى الخوارزميين في عصر أتسز بن محمد بن انوشتكين خوارزم شاه، وورد لنا من وزرائه الفلكي أبو مظفر سعيد بن محمد بن عبد الله النيسابوري، والآخر شمس الدين أبي الفتح محمد بن علي بن موسى، ويتبين لنا من دراسة نظام الوزارة في الدولة الخوارزمية أن تعيين الوزير، وتفويض السلطة إليه من صلاحيات السلطان الخوارزمي، باعتباره المشرف الفعلي على شئون دولته، وتعد سلطة الوزير محددة، وبقائه في السلطة يتحدد على أساس رضا السلطان عنه، وكان عدد الوزراء يختلف من سلطان لآخر، فقد اتخذ بعضهم وزيرًا، والبعض الآخر أكثر من وزير، فكان للسلطان علاء الدين ثلاثة وزراء في كل من نسا ونيسابور وبلاد الترك، والوزراء يعيشون في أقطاعات مقررة لهم منحها لهم السلطان، ويذكر النسوي بأن الوزراء قد تلقبوا بعدة ألقاب جديدة مضافة إلى أسمائهم، ويبدوا أنهم اقتدوا بالسلاجقة في هذا الشأن، فبعد ما كانوا يلقبونهم بلقب خواجه، أصبحوا يخاطبونهم بألقاب معظمة، فقد تلقب الوزير ناصر الدين وزير علاء الدين خوارزم شاه بـ(المثال العالي، المعظمي، الصدري، الاعظمي، العادلي، المرابطي، القوامي، الكهفي) وغيرها من الألقاب الكثيرة.

د- الدواوين :

اتخذت الدول والممالك الإسلامية بغداد حاضرة الخلافة لها في شان تنظيم الدواوين فأوجدت الدواوين المناسبة لها لكي تشرف على إدارتها ، ويبدو أن الخوارزميين تأثروا بهذا النوع من التنظيم الإداري فادخلوه بلادهم، فأوجدوا ديوان الجيش ويسمونه أحيانا بديوان العرض، وهو نموذج لما كان عليه ديوان عرض الجيش في الدولة العباسية. وكان هذا الديوان يضم أسماء عدد من القواد ، والجند وطوائفهم ورواتبهم وأعطياتهم ، واقطاعاتهم ، وكان هناك ديوان آخر يسمى بديوان الإنشاء وهو ديوان الرسائل السياسية ومراجعة الرسائل الرسمية ووضعها في الصيغة النهائية . لذلك تعتبر وظيفة كاتب الإنشاء من الوظائف الرئيسية لدى الخوارزميين. وكان من أشهر كتاب الإنشاء الكاتب البلخي محمد العمري المعروف برشيد الدين الوطواط، كاتب عهد أتسز خوارزم شاه، وكان يعد من أكبر الكتاب في الدولة .

هـ- القضاء:

تعد وظيفة القاضي من أرفع الوظائف الدينية، وأعلاها قدرا وأجلها رتبة، وكانت القضايا التي يتناولها القاضي للفصل فيها كثيرة ومتنوعة منها قضايا السرقات، وشرب الخمر والزنا والمواريث، وكان القاضي يقوم بوظيفة المحتسب؛ لأن هذه الوظيفة كانت شديدة القرب من وظيفته، وكان القضاة يعينون عادة من قبل السلطان الخوارزمي، كما تبين ذلك من تعيين علاء الدين محمد بن تكش خوارزم شاه للقاضي صدر الدين الجندي قاضيًا على نيسابور وتوابعها .

ثانيا : الجوانب الاجتماعية والاقتصادية للدولة الخوارزمية

أ- مدينة خوارزم ومجتمعاتها:

تعد مدينة خوارزم من أكبر المدن وأعظمها وأجملها ولها أسواق وشوارع فسيحة وعمارة كثيرة وتزج بالسكان لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ويتوسط بالمدينة الأسواق والمدارس وكانت تلك السواق تخف زحامها يوم الجمعية وفيها مدارس ومساجد .

أما طبيعة المجتمع الخوارزمي فيتحدث ابن بطوطة عن طبيعة المجتمع في خوارزم فيقول (لم أر في بلد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرب منهم، ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرها، وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيرانه معلما لهم بحضوره الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة وفي كل جامع درة أي كيس من النقود معلق برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح الجامع أو تطعم لفقراء المسلمين، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة من قديم الزمان .

ب- التجارة في الدولة الخوارزمية:

يقع نهر جيحون خارج خوارزم وهو أحد الأنهار الأربعة من الجنة، وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر اتل وتسلك الناس عليه، وتبقى مدة جموده خمسة أشهر، وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا . ويسافر عبره الناس أيام الصيف بالمراكب إلى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير، وقد اشتهروا بتجارة البطيخ حيث يتميز أهل خوارزم بالبطيخ

صادق الحلاوة وفيه الصلابة وقشره أخضر وباطنه أحمر، ويحمل من خوارزم إلى أقصى بلاد الهند والصين[1] .

---

(1) خالد موسى حسيني وآخر، الدولة الخوارزمية (دراسة في أحوالها السياسية)، ص ١٢- ١٥

القسم الثاني

النصوص الفارسية

سلجوقیان

سَلجوقیان (سَلاجقه، آل‌سلجوق)، نام دودمانی ایرانی وترک‌تبار بود که در سده‌های(۵ و۶هجری) بر بخش‌های بزرگی از آسیای غربی وایران فرمانروایی داشتند. سلجوقیان در اصل غزهای ترکمان بودند که در دوران سامانی در اطراف دریاچه خوارزم (آرال)، سیردریا وآمودریا می‌زیستند. سلجوقیان که به اسلام رو آورده بودند، پس از ریاست سلجوق بن دقاق، نام سلاجقه را به خود گرفتند وبه سامانیان در مبارزه با دشمنانشان بسیار یاری کردند. پسر سلجوق به نام میکاییل که بعد از مرگ او ریاست این طایفه را در دست گرفت سه پسر داشت به نام‌های یبغو، چغری وطغرل. ابتدای سلطنت سلجوقیان را باید با خطبه سلطنت برای رکن الدین ابوطالب طغرل بن میکاییل بن سلجوق در تاریخ شوال ۴۲۹ هجری در نیشابور دانست. او در ۴۵۵ هجری بعد از۲۶ سال سلطنت در سن هفتاد سالگی در ری در گذشت ودر مکانی که به برج طغرل (در ابن بابویه) معروف است دفن شد. در زمان سلطان ملکشاه سلجوقی این قلمرو به اوج اقتدار رسید. این محدوده از شرق تا ماوراءالنهر واز غرب تا دریای مدیترانه امتداد یافت. واپسین شاه این سلسله طغرل سوم بود که در پی مناشقات پی در پی با سلطان تکش خوارزم شاه شکست خورد وبه قتل رسید وبا مرگ او، سلسله سلجوقیان در ایران فرو پاشید. سلجوقیان زبان فارسی را زبان رسمی ودرباری قرار دادند و وزیران این دوره به ویژه عمیدالملک کندری وخواجه نظام‌الملک توسی خدمات مهمی به این زبان وعمران وآبادانی شهرها وگسترش فنون ودانش‌ها نمودند. بنیادگذاری مدارس نظامیه، در نیشابور واصفهان وایجاد کتابخانه‌ها وخانقاه‌ها ومدارس گوناگون از

کوشش‌های فرهنگی این دوره‌است. نویسندگان ومشاهیری مانند: فخر رازی، محمد غزالی، ابوالفرج بنجوزی، شیخ شهاب الدّین سهروردی و امثال آنان نیز در این روزگار می‌زیستند. زبان فارسی در این دوره رواج کامل یافت وبیشتر پادشاهان سلجوقی در گسترش فرهنگ وتمدن ایرانی وسخن فارسی وتشویق وترغیب شعرا ونویسندگان فارسی‌زبان کوشش فراوان کردند. گروهی از شاعران این دوره همچون امیرالشعرا معزی، انوری وخاقانی ونظامی در شمار استادان وپیشکسوتان بزرگ شعر وادب فارسی قرار گرفتند وسخن‌سرایان ونویسندگان دیگری که در این دوره از پشتیبانی شاهان ووزیران سلجوقی برخوردار بودند عبارتند از: ابوالفضل بیهقی، خواجه عبدالله انصاری، اسدی طوسی، حکیم ناصر خسرو، عمر خیام، سنایی، جمال الدین عبدالرزاق اصفهانی ودیگران... شعر فارسی در این روزگار پیشرفت‌هایی کرد وسبک ویژه‌ای به نام سبک عراقی در آن پدید آمد.

تاریخ سیاسی سلجوقیان

سلجوقیان تیره‌ای از ترکان غز مسلمان بودند که در زمان قدرت سامانیان در سواحل شرقی دریای خزر وسرزمین‌های اطراف دریاچه آرال سکونت داشتند. نام سلجوقیان از نام یکی از رئیسان آنان گرفته شده که در عهد سامانیان می‌زیست. نوادگان همین سلجوق بودند که ورود به مرزهای پادشاهی سامانیان وسپس غزنویان را آغاز کردند ودر جنگ دندانقان (۴۳۱ق) سپاهیان سلطان غزنوی را شکست دادند وورود به سرزمین‌های داخلی ایران را آغاز کردند. رهبری اتحادیه سلجوقیان را طغرل بن میکائیل برعهده داشت که در سال۴۲۹ بر جانشین سلطان مسعود غزنوی پیروز شد وسلطنت سلجوقیان را بنیان گذارد. سلجوقیان به تصرف سرزمین‌های داخلی وغربی ایران ادامه دادند وبا شکست باقی‌مانده آل بویه در ایران مرکزی وغربی وعراق در سال ۴۴۷ طغرل وارد بغداد مرکز خلافت عباسی شد .

دوران سلطنت دو جانشین طغرل یعنی آلب ارسلان و ملکشاه دوران اوج قدرت سلجوقیان وپیشرفت اقتصادی وآبادانی قلمروی آنان بود. قلمرو سلجوقیان در زمان آلب ارسلان دومین سلطان سلجوقی در شرق تا رود سیحون ودر غرب تا دریا مدیترانه گسترش یافت. آلب ارسلان در سال ۴۶۳ در نبرد ملازگرد امپراتور روم شرقی را شکست داد واسیر کرد .

با اینکه تقریباً درگیری بر سر جانشینی سلطان درگذشته بین سلجوقیان خیلی زود آغاز شد، وحدت سلطنت بر متصرفات سلجوقیان تا زمان مرگ سلطان ابو شجاع محمد (۵۱۱ق.) ادامه یافت؛ اما بعد از مرگ سلطان محمد قلمروی سلجوقیان در عمل به دو پاره تقسیم شد. سلطان سنجر که

از زمان سلطان محمد بر خراسان حکومت داشت و قدرت فراوانی به دست آورده بود، بعد از مرگ سلطان محمد خود را جانشین او دانست؛ اما در شرق ایران فرزند سلطان محمد، یعنی محمود ادعای جانشینی داشت. از این پس حکومت بر مناطق شرقی ایران از ری تا ماورالنهر در دست سنجر وجانشینان او وحکومت در شرق ایران وعراق در دست فرزندان سلطان محمد باقی ماند که به آنان سلاجقه عراق گفته می‌شود . از سوی دیگر از دوران وفات سلطان محمد برکیارق برخی از امرای سلاجقه در نواحی مختلف کم‌کم قدرت مستقلی برای خود به دست آوردند و حکومت‌های محلی در دل قلمرو سلجوقیان به وجود آمد. از جمله سلاجقه کرمان که از سال ۴۳۳ق. به استقلال در کرمان حکومت کردند. قدرت محلی اتابکان نیز به تجزیه امپراتوری سلجوقی سرعت بخشید همانند: حکومت اتابکان دمشق (۴۹۷-۵۴۹)، اتابکان موصل(۴۶۸-۵۲۱)، اتابکان آذربایجان (۵۴۱-۶۲۶) واتابکان فارس(۵۴۳-۶۸۴) در خوارزم نیز شاخه مستقلی از امرا به نام خوارزم شاهان (۴۹۰-۶۲۸) بر سر کار آمدند که بعداً حکومت سلجوقیان را از شرق ایران برچیدند.

اسماعیلیان در ایران

حسن صباح وپیدایش نزاریان در ایران

مورد اینکه چگونه اسماعیلیه راه به ایران باز کرد، باید گفت پس از شکل گیری دولت فاطمی، این دولت اقدام به فرستادن داعیان به مناطق مختلف کرد، از آن جمله می توان از ایران نام برد. به عنوان مثال می توان از ابوحاتم رازی، ابو عبدالله نسفی، حمیدالدین احمد کرمانی و... نام برد، البته از داعیان بزرگ اسماعیلی می توان به ابو یعقوب سجستانی اشاره کرد که در واقع ادامه دهنده تفکر فلسفی استاد خود ، نسفی بوده است. او واستادش مناظرات پرارزشی با فلاسفه عصرشان داشته اند.

واما حسن صباح او که آغازگر حرکت اسماعیلیه نزاری در ایران است، بنا بر گفته خودش، زادگاهش شهر شیعی نشین قم بوده(هرچند وی در اصالت اهل حمیر در یمن می باشد)، ولی به علت تکاپویش در طلب دانش به شهر ری نقل مکان می کند ودر آنجا به تحصیل علم می پردازد تا هم بتواند در دیوان رسالت برای خویش شغلی به دست آورد وهم به معلومات وسیعتری دست پیدا کند. حسن صباح در لباس تاجران در سال ٤٧٩ یا ٤٨١ هـ ق به مصر رفته وبا مستنصر ملاقات می کند وبه او می گوید که به دعوت او می پردازد. حسن به مدت یک سال ونیم در مصر ماند، پس از فوت مستنصر در سال ٤٨٧هـ ق، اختلاف بر سر جانشینی او بین پسرانش رخ داد، امیر الجیوش بدر از آن جهت که پدرزن مستعلی بود می خواست مستعلی خلیفه گردد ومی دانست که حسن بر اساس مذهب اسماعیلی بر دعوت نزار می باشد و از او طرفداری می کند، تصمیم به

اخراج او از مصر گرفت. با اخراج حسن از مصر، دوران نوین کوشش حسن صباح آغاز گردید. او بیش از ده سال با اسماعیلیان در ارتباط بوده، به سوریه ومصر سفر کرده ویک سال ونیم هم در پایتخت فاطمیان زیسته بود. دوره انباشتن دانش سیاسی ومذهبی پایان یافته وزمان تلاش سیاسی وتبلیغ فرارسیده بود. در این هنگام فرمانروایان سلجوقی در ایران، از فعالیت ها وارتباطات او با اسماعیلیان آگاه شده وبه دنبال او می گشتند. حسن که به ایران آمده بود به اصفهان رفت ودر خانه یکی از هوادارانش پنهان شد. در این هنگام تمام توجه او به قلعه الموت بود زیرا آن را دژ مناسبی برای شروع جنبش نزاری می دانست . در آن زمان مهدی علوی از طرف سلطان ملکشاه، حاکم بر آنجا بود ، حسن توانست وی را کنار زده وخود بر الموت در سال ٤٨٣ق مستقر گردد . بعد از استقرارش، به عنوان رهبر اصلی نزاریان تعالیم جدیدی را مطرح ساخت که مقداری با تعالیم فاطمیون تفاوت داشت؛ از این رو دعوت حسن صباح، دعوت جدیده نام گرفت. وی شروع به فرستادن داعیان به اطراف واکناف نمود .

در سال ٤٨٥ ق، جنگ های سلجوقیان با الموتیان شروع شد ، چنانچه غلام سلطان ملکشاه به نام «آلتون تاش» که رودبار در وجه اقطاع او بود به قلعه حمله می کرد و از اتباع حسن هر که را می دید می کشت ، از آن جهت که ذخیره ای در قلعه نمانده بود کار بر حسن سخت شد که در این هنگام مرگ آلتون تاش موجب قوت او شد . ولی چندی بعد «ارسلان تاش» به دفع حسن پرداخت وآن قدر پیشروی کرده بود که نزدیک بود قلعه را بگیرد، در این هنگام دهدار ابوعلی اردستانی از قهپایه طالقان و ری، ٣٠٠ نفر را برای کمک به سوی حسن فرستاد که در نتیجة شبیخون به

لشکر ارسلان تاش پیروز شدند. در این مدت حملات زیادی به نزاریان در این مدت شد ولیکن در هر بار با شکست مواجه شده ونزاریان جان سالم به در بردند .

فدائیان اسماعیلی

نزاریان به دلیل نداشتن توان نظامی در برابر سلجوقیانی که دارای قدرت نظامی غیرمتمرکز وبسیار برتر بودند، سیاست مخوف ترور وقتل های بزرگ به دست فدائیان اسماعیلی را برگزیدند. این خط مشی بسیار مؤثر واقع شد ودر مدت کوتاهی، بیشترین قتلهای سیاسی مهم، دست کم در سرزمین های مرکزی اسلامی، به خنجر فدائیان نزاری، که به ندرت جان سالم از معرکه به در می بردند نسبت داده شده است . اولین فردی که ترور شد خواجه نظام الملک، وزیر مقتدر ملکشاه سلجوقی بود. قتلهای سرزمین های شرقی دوره الموت، نقش مهمی در شکل دادن به عقاید ونظریات ضد نزاری در جامعه مسلمین داشت، از طرفی دیگر گزارش ها واخبار خصمانه وغلط درباره اسقاط ونسخ ادعایی شریعت نیز به پدید آمدن تصویری منفی از نزاریان شدت بخشید. طرز انتخاب کاردزن‌های اسماعیلی که فدائیان خوانده می شدند روشن نمی باشد ودر تاریخ مطلبی در این باره وجود ندارد . تنها به همین مقدار یافت می شود که حسن صباح برای رسیدن به هدفش راهی کوتاه را برگزید وآن از بین بردن بزرگانی از علماء وامراء بود که بر ضد اسماعیلیان اقدام می کردند، زیرا با این تدبیر، رعب ووحشتی در دل آنان ایجاد کرده وآنها را از دادن فتوا بر ضد اسماعیلیه وبدنام کردن آنان در میان مردم و از شدت عمل در برابر این فرقه باز می داشت .

قراخانيان

قراخانيان ترك نژاد به جاي سامانيان ايراني تبار برفرارود حكومت يافتند. ظهور قراخانيان به عنوان فرمانروايان جديد فرارود را نميتوان تنها در قالب يك تغيير وتحول سياسي ارزيابي كرد؛ زيرا سلطة سياسي قراخانيان بر آن سرزمين آريايي نشين، پيامدهاي بسيار گستردهاي به ويژه در زمينه هاي اجتماعي وفرهنگي دربر داشت. قدرت يابي قراخانيان زمينة كوچهاي پي در پي فوجهاي بسياري از تركان را به فرارود فراهم آورد وبدين ترتيب، ساختار جمعيتي آن سرزمين از لحاظ نژادي متحول شد. قراخانيان، همچنين، تركمانان سلجوقي رادر جنگهاي مكررشان باغزنويان، به صورت پيدا وپنهان، ياري كردند . اين موضوع سرانجام در نبرد دندانقان در سال ٤٣١هـ.ق، به پيروزي چشمگير سلجوقيان برغزنويان منجر شد. بدين صورت، نه تنها راه ورود تركمانان سلجوقي به ايران هموار شد ، بلكه اين امر به تأسيس حكومت سلجوقيان در قلمروي انجاميد كه در زمان سلطان ملكشاه سلجوقي(٤٦٥-٤٨٥ هـ.ق) از كاشغر در چين امروزي تا كرانه هاي درياي مديترانه امتداد داشت.

با آنكه سامانيان با تدبير و درايت - و در پرتو حكومت مركزي قدرتمند خويش- به ايجاد وحدت سياسي وارضي در فرارود توفيق يافتند ، اما ساختار ويژة حكومتي غير متمركز قراخانيان، بار ديگر پراكندگي سياسي وارضي آن سرزمين را موجب شد. هنگام استيلاي قراخانيان بر فرارود، فرهنگ وهنر ايراني-اسلامي از چنان جايگاه شايستهاي برخوردار بود كه توانست برتري واستمرار خويش را حفظ كند. با اينحال، در زمان حكومت آن سلسل ة ترك نژاد، ادبيات فارسي كه در روزگار سامانيان از پيشرفتي

چشمگير برخوردار بود، روند تكاملي خود را از دست داد. همچنين، در دوران يادشده، نه تنها بهتدريج لغات، القاب، واصطلاحات تركي جاي خود را در زبان فارسي باز كرد، بلكه ادبيات تركي نخستين آثار مكتوب خود را با الفباي عربي عرضه كرد. در دوران حكومت قراخانيان ، بخارا كه در عهد فرمانروايي سامانيان كانون علمي وادبي جهان شرق اسلامي بود، جايگاه خود را تا حدود زيادي به غزنين (پايتخت غزنويان) واگذار كرد. موارد يادشده، اهميت شناخت سلسلة قراخاني را براي محققان تاريخ آشكار ميسازد.

چنانكه گفته شد، قراخانيان فاقد قدرت حكومتي متمركز ومنسجم بودند و در قلمرو آنان، وحدت سياسي وارضي وجود نداشت . اين امر به پراكندگي قدرت منجر شد ودر موارد بسيارى، مدعيان متعددي از آن خاندان با يكديگر به نزاع برخاستند. پيامد اين وضع آن بود كه به طور همزمان، قدرتطلباني از دودمان قراخاني بر بخشهايي از متصرفات آن سلسله تسلط يا فتند. بر اين اساس، بررسي فراز وفرودهاي سياسي وتحولات اجتماعي وفرهنگي در سراسر دوران حكومت قراخانيان كه بيش از سيصد سال به طول انجاميد ، تنها در تأليفي بسيار مفصل و پرحجم امكان پذير است.

خوارزم شاهیان

خوارزم شاهیان نام خاندان شاهنشاهی ترک تبار- ایرانی است . خوارزم شاهیان در اصل غزهای ترکمان بودند که در اطراف دریاچه خوارزم (آرال)، سیردریا و آمودریا می‌زیستند که از سال ۴۹۱ تا سال ۶۱۶ ه.ق، برابر با ۱۰۹۸ تا ۱۲۱۹ میلادی بر ایران فرمانروایی کردند. نوشتکین غرچه نیای بزرگ خوارزم شاهیان، غلامی بود از اهالی غرجستان که توسط سپهسالار کل سپاه خراسان در زمان سلجوقیان خریداری شد. این غلام رفته رفته در دوران فرمانروایی سلجوقیان به سبب استعداد سرشار و کفایتی که از خود نشان داد به زودی مدارج ترقی را طی کرد و به مقامات عالی رسید تا این که سرانجام به امارت خوارزم برگزیده شد. نوشتکین صاحب ۹ پسر بود که بزرگ‌ترین آنها، قطب الدین محمد نام داشت. پس از نوشتکین، فرزندش محمد از جانب برکیارق به ولایت خوارزم رسید «۴۹۱ ق / ۱۰۹۸ م» و سلطان سنجر نیز بعدها او را در آن سمت ابقاء کرد. بدین ترتیب دولت جدیدی بنیانگذاری شد که بیش از هر چیز برآورده و دست پرورده سلجوقیان بود. قطب الدین محمد به مدت سی سال تحت قیومیت واطاعت سلجوقیان امارت کرد.

پسرش اتسز هم که بعد از او در ۵۲۲ق/ ۱۱۲۸م به فرمان سنجر امارت خوارزم یافت، از نزدیکان درگاه سلطان سلجوقی بود. هر چند بعدها کدورتی بین وی وسلطان سنجر پدید آمد که به درگیریهای متعددی هم منجر شد، اما تا زمان حیات سلطان سنجر، اتسز نتوانست به توسعه قلمرو خوارزم شاهیان کمک چندانی بکند.چون اتسز پیش از سنجر وفات یافت، پسرش ایل ارسلان «۵۵۱ ق / ۱۱۵۶ م» امیر خوارزم شد. اما در

زمان او که سلطان سنجر نیز وفات یافته بود، نزاع داخلی سلجوقیان، امکانی را فراهم آورد تا ایل ارسلان به قسمتی از خراسان «۵۵۸ ق/ ۱۱۶۳م» وماوراءالنهر «۵۵۳ ق/ ۱۱۵۸ م» که هر دو در آن ایام دچار فترت بودند، دست یابد وبه این ترتیب نزدیک به پانزده سال به عنوان خوارزم شاه حکومت کند. بعد از ایل ارسلان، منازعاتی که بین پسرانش سلطانشاه وعلاءالدین تکش برای دستیابی به فرمانروایی ولایات بروز کرد، بارها موجب رویارویی نیروهای این دو برادر شد، تا این که عاقبت با استیلای تکش این درگیریها به پایان رسید. در زمان تکش تمامی خراسان، ری وعراق عجم، یعنی آخرین میراث سلجوقی به دست خوارزم شاهیان افتاد. غلبه تکش بر تمام میراث سلجوقی، نارضایتی خلیفه بغداد را به دنبال خود داشت که اثر این ناخرسندی وعواقب آن، بعدها دامنگیر محمد بن تکش شد. با درگذشت علاءالدین تکش «رمضان۵۹۶ق/ ژوئن۱۲۰۰م»، پسرش محمد خود را علاءالدین محمد خواند وبه این ترتیب سلطان محمد خوارزم شاه شد. در طی همان ایامی که محمد خوارزم شاه قدرت خود را در نواحی شرقی مرزهای ماوراءالنهر گسترش می‌داد و خلیفه بغداد – الناصر الدین بالله – برای مقابله با توسعه قدرت او در جبال وعراق سرگرم توطئه بود. در آن سوی مرزهای شرقی قلمرو خوارزم شاهیان، قدرت نو خاسته‌ای در حال طلوع بود. مغولان که در آن ایام با ایجاد اتحادیه‌ای از طوایف بدوی یا بدوی گونه، خود را برای حرکت به سوی ماوراء النهر آماده می‌ساختند، اهمیت وقدرتشان در معادلات ومجادلات سیاسی سلطان خوارزم شاه وخلیفه بغداد، نه تنها جایگاهی پیدا نکرد بلکه به حساب هم آورده نشد. در نتیجه فاجعه عظیمی که تدارک

دیده می‌شد، از دید دو قدرت ونیروی مهم آن پوشیده ماند به طوری که هنگامی که دهان باز کرد، نه از سلطنت پر آوازه خوارزم چیزی باقی گذاشت ونه از دستگاه خلافت. آنچه باقی‌ماند، ویرانی، تباهی، کشتارهای دسته جمعی، ودر یک کلام، ویرانی یک تمدن بود. هنگامی که چنگیز خان به تختگاه خویش باز می‌گشت، بخش عمده ایران به کلی ویران شده و بسیاری از آثار تمدنی آن نابود شده بود.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر والمراجع العربية

١- حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٤٩م

٢- دونالد ولبر: إيران ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد النعيم محمد حسنين ، دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني ، القاهرة ١٤٠٥/١٩٨٥م.

٣- سعاد هادي حسن إرحيم الطائي(دكتور)، القراخانيون دراسة في أصولهم التاريخية وعلاقاتهم السياسية ودورهم في الحياة العلمية، دمشق، سوريا ٢٠١٦م

٤- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الفجالة، القاهرة ١٩٩٠م

٥- عبد السلام عبد العزيز فهمي(دكتور): الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١م

٦- عفاف سيد صبرة (دكتور): التاريخ السياسي للدولة الخوارزمية، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجامعي، القاهرة ١٩٨٧م

٧- علي محمد محمد الصَّلاَّبي(دكتور): دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامى لمقاومة التغلغل الباطنى والغزو الصليبى، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م

ـــــــ موسوعة الحروب الصليبية(٥)، المغول(التتار) بين الانتشار والإنكسار: الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان ٢٠٠٩م

٨- فؤاد عبد المعطي الصياد (دكتور): المغول في التاريخ، الجزء الأول، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٠م

٩- محمد سهيل طقوش(دكتور): تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت، لبنان ٢٠١٦م

١٠-محمد عبد العظيم يوسف(دكتور): السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري ، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠١م

ثانيًا : المصادروالمراجع الفارسية

١- پاول هرن: تاريخ مختصر إيران، ترجمة د. رضا زاده شفق، مطبعه مجلس، تهران ١٣١٤ش

٢-حسن بيرنيا وعباس إقبال: دورهٔ إيران از آغاز تا انقراض قاجاريه، تهران١٣٢٦ش

٣- رضا شعبانى(دكتر): مختصر تاريخ إيران، جلد اول، تهران ١٣٧٨ش

٤- عبد الله رازى همدان: تاريخ إيران از ازمنه باستانى تا سال ١٣١٦ش ، چاپخانه اقبال، تهران ١٣١٧ش .

ثالثًا: الرسائل العلمية

١- حسن محمد حسن القانوع: عوامل النصر والتمكين للدولة السلجوقية في عهد السلطان ألب أرسلان، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة ٢٠١٩م .

رابعًا: الدوريات العلمية:

١- خالد موسى حسيني وآخر، الدولة الخوارزمية (دراسة في أحوالها السياسية) ، مجلة جامعة بابل، العلوم الإنسانية، المجلد٢٠، العدد ٣، ٢٠١٢م

٢- عليان عبد الفتاح الجالودي(دكتور): قواعد الحكم في سلطنة آل سلجوق من خلال كتاب (سياستنامه) للوزير السلجوقي نظام الملك الطوسي، المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد الخامس، عدد١ ، ٢٠٠٩م.

خامسًا: شبكة المعلومات الدولية

-https://azharfarsy.yoo٧.com/t٢٣-topic

-https://dorar.net/firq/٣١٩٩/

-https://golanturkmanlare.ahlamountada.com/t٥٨٠-topic

-https://islamstory.com/ar/artical/٣٤٠٧٨٦٢/

-https://tipyan.com/jalal-ad-din-khwarizm-shah